كمال جنبلاط

نحو اشتراكية أكثر انسانية

[بعض معالم فكر مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي]

[ترجمة رودلف القارح]

اول ايار ١٩٧٩

(الذكرى الثلاثون لتأسيس الحزب)

كمال جنبلاط

نحو اشتراكية أكثر انسانية

[بعض معالم فكر مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي]

[ترجمة رودلف القارح]

اول ايار ١٩٧٩

(الذكرى الثلاثون لتأسيس الحزب)

هــذه ترجمة لكتاب القائد الشــهيد
كمال جنبلاط الذي ظهر سنة ١٩٧٦
بعنــوان :

« Pour Un Socialisme Plus Humain »

نحو مدينــة أفضل

اتحاد اقتصاد عربي

يبدو ان التنظيم الاقتصادي لعالم ما بعد الحرب يفترض تقسيم هذا العالم الى تجمعات او فدراليات من الدول او الى كتل أقتصادية .

وفي هذه الحدود الاقتصادية ، لا قيود على الاطلاق على حرية التجارة .. ولا حواجز جمركية .. الا على أطراف كــل تكتــل .

ولهذا التنظيم الجديد غايات ثلاثة :

١) فهو يشجع ويقوي « تخصص » كل « امة » في الكتلة اما في اتجاه الانتاج الزراعي او في الانتاج الصناعــي وحسب ما يتناسب على أكمل وجه مع مواردها الخــاصة ، مما يخفض بالطبع من كلفة هذه المنتوجات ومن شأن هــذا التوجه ايضا تحسين نوعية المنتوج من جهة وتطبيق قانون تقسيم العمل على كل حالة خاصة من جهة اخرى .

٢) يسمح بتحسين نظام توزيع المنتوج ، وبتطابق أفضل بين العرض والطلب :

— ان تنظيما افضل للتوزيع مضافا الى نظام اقتصادي ملائم للبلد المعنى ، ان هكذا تنظيما يساعد الى حد كبير على الغاء البطالة . والبطالة مشكلة في غاية الخطورة خاصة اذا ما رجعنا الى الازمات الكبرى التي هزت العالم كالتي حصلت بين ١٩٢٩ و ١٩٣٩ .

٣) من شأن هذا « التخصص » في الانتاج وهذا التنظيم الافضل للتوزيع تقوية الروابط التضامنية بين الامم المكونة للكتلة ... ومن شأن هذا تضاف تخفيف احتمالات الحرب او حتى جعل الحروب امرا مستحيلا .

هذا هو اذن الرسم البياني لمخطط تنظيم العالم الذي اوصى به العديد من علماء الاقتصاد كبديل لحلم الاقتصاد الليبرالي القديم الذي كان يقضي بالغـــاء كامل للحواجز الجمركية على صعيد العالم وهو حلم مستحيل على الاقـل في أيامنا هذه بسبب أزمة المسألة القوميـة الحادة التـي يعيشها العالم الحاضر وهي أزمة لا يبدو حتى الان انها على وشك الانتهـاء .

لقد أثار هذا التنظيم الاقتصادي الجديد اهتمام السيد بول راينو Paul Reynaud عشية الحرب الاخيرة . فاقترح آنذاك الوزير الفرنسي توسيع نظامه الـى تجمعين دوليين يشكل كل منهما كتلة اقتصادية :

١ — الامبراطورية البريطانية الضخمة .

٢ — الامبراطورية الفرنسية .

اما بين الكتل الاقتصادية نفسها فكان يفترض راينـو قيام تبادلات تجارية مبنية على احدث الانظمة الجمركية: تحديد

كمية البضائع الاستـيراد contingentement ، اتباع نظـام المقاطعة clearing الخ .

رقـابة النقـد

كما أن اللورد كيللـرن Killearn قام منذ زمن بعيد بالاشارة اليه عندما اوصى في مقال صحفي باقامة اتحاد اقتصادي للقارة الافريقية .

ان الاتحاد الجمركي العربي يسترعي اهتمامنا اكثـر لانه يعنينا مباشرة كما انه يبدو الان « موضوع الساعة » .

أن هكذا اتحاد يفترض ، كأي نوع مـن الاتحادات ، انشاء قيادة مركزية مشتركة بين كل الدول الاعضاء في الكتلة، اي انشاء نوع من اللجنة العليا ، ولقد سبق وطرح هـذا الموضوع بعض الاوساط ، كما أنه يفترض انشاء نظام نقدي مشترك . ليس هذا الشرط الاخير ضرورة مطلقة ، ولكن من شأنه تسهيل المبادلات الاقتصادية . أما الشرط الاهم لقيام هذا النظام الاقتصادي المنشود فهو ان الاتحاد الاقتصادي لا يمكن ان يطبق تلقائيا وبشكل فوري على كل الدول المعنية بالامر الا في حال بلوغ هذه الدول مستوى متماثلا على صعيد النمو التقني والاقتصادي ، وفي حال التكامل بين حاجاتهم ومنتوجاتهم على قاعدة الحـد مـن الفائض بين العرض والطلـب .

وعندما نتكلم عن نمو متماثل على الصعيـد التقني والاقتصادي ، نأمل عدم حدوث خلل من شأنه الانعكاس على العلاقات بين البلدان والاعضاء في الكتلة . انني أعني ما يلي : ان دولة تتمكن من انتاج سلعة معينة بأسلوب عقلاني وعلمي

قادرة على مزاحمة انتاج دولة اخرى بنجاح او حتى خنق هذا الانتاج حتى لو كانت الدولة الاولى غير مؤهلة بطبيعتها لانتاج هذه السلعة وكانت الثانية (اي التي بمستوى تقني متطور) ومؤهلة هي بفضل ظروفها الجغرافية والطبيعية لانتاج انواع رفيعة من هذه السلعة .

لنأخذ مثلا :

ان البرتقال اللبناني بصورة عامة وخاصة برتقال منطقة صيدا ، افضل جودة من البرتقال الفلسطيني . ولكن اذا ما رفعت الحواجز الجمركية بين فلسطين ولبنان ، فسيجد الانتاج اللبناني صعوبة كبيرة في مزاحمة الانتاج الفلسطيني ، وذلك بسبب التفاوت التقني بين اسلوبي الانتاج اللبناني والفلسطيني . فبينما لا يزال الاول قائما على تقنيات بدائية يلجأ المنتجون الفلسطينيون الى تقنيات اكثر تطوراً تعتمد أساسا على النمط الزراعي الواسع النطاق .

ويمكن ملاحظة الشيء نفسه على صعيد الصناعة . فالصناعة اللبنانية ما زالت ناشئة وفي بداياتها بينما الصناعة الفلسطينية متقدمة وشبيهة الى حد كبير في أساليبها التقنية ونمط تمويلها بالصناعات الاوروبية الكبرى .

لنأخذ مثلا ثالثا : ان اسلوب الزراعة الواسعة النطاق واسلوب الزراعة الاحادية في سوريا يمكن هذه الاخيرة من انتاج القمح بكلفة متدنية جدا . فاذا سقطت الحواجز الجمركية بين البلدين فلن يتمكن المزارع اللبناني من زراعة القمح في هضبات الجبل اللبناني القاحلة .. مما سيدفع الفلاحين الى سلوك سبيل الهجرة البشعة من الريف الى المدينة .

كل ما سبق يعني انه ليس من الممكن الغاء التعرفة الجمركية على بعض المنتوجات بصورة مفاجئة وكاملة ، خاصة فيما يتعلق بالاصناف التي تكلمنا عنها . وفي هذا الصدد يجب الاخذ بما يلي :

ا) فيما يتعلق بالمنتوجات التي سوف تلغى من اقتصاديات احدى دول المجموعة : الاخذ بتعرفة جمركية متناقصة تدريجيا من سنة الى سنة ، الى ان يصبح من الممكن تحديد ما اذا كان الغاء الصنف أو الاصناف المذكورة متطابقا مع نمو كاف للمنتوجات التي سنسميها « المنتوجات البديلة ».

من حسنات هذا الاسلوب انه يجنب الفلاحين والمنتجين الذين ينتجون الاصناف المقرر الغاؤها من الوقوع في البؤس والخراب ، ويمكنهم من ابدال هذه الاصناف تدريجيا بما يتوافق مع الخطة المرسومة لتشجيع منتوجات وزراعات أكثر مردودا .

ب) بالنسبة للمنتوجات الواجب تشجيعها :

ان الاعتبارات السابقة تدفعنا الى الاستنتاج ان عملية المرور من اقتصاد مغلق خاص بدولة معينة الى اتحاد جمركي بين الدول الاعضاء في الكتلة ، تتطلب مرحلة معينة من الوقت لا يمكن ان تكون في حالة من الاحوال اقل من عشر سنوات .

وسوف يقوم تقنيون معينون برسم الخطة التي ستحدد السياسة الاقتصادية للكتلة في هذه المرحلة . وعلى هذه الخطة ان تحدد المنتوجات القائمة والمطلوب تنشيطها ،

والمنتوجات المطلوب المباشرة بصناعتها او زراعتها في كل دولة من دول الكتلة وذلك على ضوء الظروف والشروط الطبيعية المحددة لكل بلد .

ج) بالنسبة للمنتوجات المطلوب الغاؤها من اقتصاد كل دولة :

على عملية الالغاء هذه ان تكون مبرمجة وتمتد على الحقبة المعتبرة ضرورية للانتقال من اقتصاد مبني على « الحماية التجارية » الى اقتصاد ركيزته الاتحاد الجمركي . ولن تكون عملية « الالغاء » هذه في الحقيقة سوى عملية تبديل المنتوجات غير الملائمة بالمنتوجات المطلوب تنشيطها او المباشرة بانتاجها .

د) يتبين مما سبق ان على الخطة الاقتصادية المرسومة ان تكون بمثابة سياسة سليمة لتنمية الدول الاعضاء بالكتلة على الصعيد الاقتصادي . وعلى هذه الخطة آن تدرج في حساباتها ضرورة تقديم التسليفات والمساعدات على انواعها لتنشيط المنتوجات الجديدة الخ ... وفيما يتعلق بالزراعة مثلا ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار الضرورات التالية : الري ، الجمعيات الزراعية ، المدارس الزراعية ، مراكز الاختبار والنخب الخ .. ان هذا العمل القائم على المساعدة والدعم والتوجيه هو عمل ضروري بل حيوي اذا أردنا ان نجنب بعض شعوب ودول الكتلة ويلات الانهيارات والكوارث الاقتصادية. لقد أردنا في هذا الحديث البسيط ان يكون بمتناول الجميع . وسوف نختتم كلامنا بالقول ان هذه الاشكال من الاتحادات الجمركية هي في الحقيقة محاولة لتحقيق النظام الاوروبي الشهير الذي حاول هتلر فرضه بالنار والدماء ، لتحقيقه بروح الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية .

هنيئا للديموقراطيات اذا عرفت كيف تستوعب في الوقت المناسب العناصر الصحيحة والانسانية الابدية التي كانت تختزنها الثورة النازية طبعا الى جانب اغلاطها وجنونها .

هنيئا لهذه الديموقراطيات لانها اذا سارت على طريق الاستيعاب هذه فستكون قد وجدت طريقها الى النظام والسلام المستقر .

عقيدة الحزب التقدمي الاشتراكي

لو كان علينا ان نستند في المجال الاقتصادي الى هذا « المستوى » من الكائن الفردي حيث تلد وتتكون وقائع ومظاهر هذا العالم ، وحيث أن التاريخ في النهاية ما مرده الى حالات نفسانية على حد قول ك. ج. يونغ E. J. Jung ، لكان علينا أن نقول ان الاشتراكية في الغرب بما فيها الماركسية الملحدة والمادية نفسها — قد انبعثت من أفكار العدالة والمساواة والاخاء والمحبة التي زرعها المسيح منذ سنة ١٩٥٢ في الطبقات العميقة من الضمائر الفردية .

تذكروا هذه الشعوب « الساهرة » بانتظار « شيء ما » غداة الانهيار المشؤوم للمؤسسات شبه المسيحية في القرون الوسطى الاوروبية تحت ضغط الثورات الديموقراطية الوطنية الكاسحة التي برزت في مجرى الازمنة الحديثة ، في نفس الوقت الذي كانت تظهر فيه المطبعة والآلة ويتبلور روح التنظيم دافعا التطور الى الامام بفضل قوته الهائلة .

ماذا أعطي لهذه الضمائر الفردية المهتزة والمتحولة الى حد معين بدافع من الدعوة الانجيلية ؟ خاصة اذا عرفنا ان

افكار المساواة والاخاء والمحبة كانـت « هنــا » في اقصى أعماق « ذات » الانسان المترفعة .

فلو استطاعت المسيحية آنذاك ان تفهم رسالتها في الحقل الزمني ، علــى غــرار بعض اشكال البروتستانتية المتقدمة في هذه الايام ، وطبقت مضمون الرسائل البابويــة (التي بقيت حبرا على ورق) لكانت ساهمت بصورة فعالة في عملية بناء اقتصاد وسياسة ومجتمع الازمنة الحديثة . ولربما كنا شاهدنا ولادة اشتراكية مسيحية ولكانت تحولت التجربة الروسية نفسها الى أكبر انجاز للمسيحية التاريخية ، على حد قول سفير اميركي .

وفي الحقيقة ان الاشتراكية في اوروبا تمت وتطــورت كرد فعل على هامش كل ديانة ، وكل روحانية ، وضدهما ، وذلك رغم تأثرها بجوهر العهــد الجديد ... وبالفعل لقد اهتز «رقاص» التاريخ وانحرف..ونحن نرى اليوم اكثر من ثلث سكان هذا الكون يعيش تحت مظلة انظمة اقتصادية مستقاة من الماركسية المادية .

وبرأينا ان الوقت قد حان ليعود هذا « الرقاص » الى مكانه ولتنبعث اشتراكية جديد مستأصلة من عيوبها المادية وهي عيوب ادت الى تحويل الاشتراكية احيانا الــــى اداة بشعة للاستغلال الانساني وللتعذيب المعنوي . اذن هناك ضرورة لبروز اشتراكية جديدة ، قوية ، تغرس جذورهـــا مجددا في المستوى الروحي دون ان تنسى او تغفل قانون الجدلية الرهيب الذي هو اقوى دافع ومحرك للتاريخ .

هذا هو مفترق التطور ، وعلى هذا المفترق ، علـــى

دروب هذا التاريخ ، وفي اطار عودة « الرقاص » الى مساره نحن نرسم المواقع العلمية التي تنطلق منها بعض الحركات الاشتراكية الآسيوية والعالمية ومن ضمنها الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني .

نحن نعتقد أن رهان الصراع الفعلي اليوم في العالم ، لا يكمن في المواجهة بين الماركسية والديموقراطية . ذلك ان الديموقراطية تأثرت هي نفسها بمبادىء الاشتراكية وانه لا بد للماركسية أن تسلك سبيل الديموقراطية — رغم ترددها الحالي — بسبب حتمية القانــون القائــل ان الحرية تتبع بالضرورة الديكتاتورية .

أصبحت الضمائر الان شبه مؤهلة لاختيار ديموقراطية اشتراكية او بكلام اخر اشتراكية أكثر انسانية ، وأكثر تفهما ، اشتراكية عقلية معتدلــة ، اشتراكيــة بعيدة عن التحجر العقائدي واقل صورية ، بعيدة عن الستالينية المكروهة ، اي باختصار اشتراكية اختبارية تعمل على انصهار الانسان في كليته وتعيد صلة جذورها بالتاريخ وبالروح .

ان هذه الآفاق التي نرسمها ليست آفاقا ماركسية ، لكنها ترفع الماركسية وتتخطاها . وعلى ضوء هذا التطور سوف نقرأ معا هنا بعض عناوين البرنامج الاقتصادي للحزب التقدمي الاشتراكي وسنحصر كلامنا بهذا الاطار لان حديث اليوم لا يمكننا من الخوض في ما تبقى من اهداف حزبنا .

طبعا تبدأ بالقول كأي حزب اشتراكي يحترم نفسه ان فكرتي التخطيط والتوجيه في الاقتصاد هما على رأس القائمة في برنامجنــا :

انعاش وانهاض الاقتصاد باعتماد سياسة في الاقتصاد والمال تصميمية وتوجيهية . ويرمي هـذا التصميم والتوجيه الى مـا يلي :

١) توطيد وتحسـين مستـوى المعيشة والطمأنينة الاجتماعية بفضل تعزيز قوة الانتاج من حيث الجودة والكمية وخفض تكاليف المعيشة وتعادل ميزان الحسابات .

أ) تحسين التقنية في الانتاج . وتأتي فيما بعد تفاصيل تطبيقية تتعلق بالعامل ومدير الاعمال والمواطن والاساليب .

ب) تشجيع المبادرة الشخصية وروح الاقدام على العمل والابتكار في العلوم والفنون والتقنية الخ .

ج) الافادة المثلى من مواهب المواطنين والاستخدام المنهجي والعلمي للمرافق الطبيعية .

— طاقة كهربائية منسجمة مع الري والاسمدة الطبيعية والكيماوية في الصناعة .

— ترحيب بالجهود والرساميل الاجنبية وباستثمارها بشرط ان تنسجم في العمل المشترك وتستهدف مصلحة البلد ولا تتأثر الا بالسياسة الوطنية .

اما فيما يتعلق بوسائل الانتاج فهل من الضرورة القول هنا ان التجربة السوفياتية نفسها تدل على ان الغاء خمسة آلاف سنة من الاقتصاد الرأسمالي ومن الملكية الخاصة بقرار هو أمر مستحيل حتى لو أوصى وتنبأ بذلك ماركس وانغلز ولينين او ستالين . لا أنبياء في الاقتصاد ، بل تجربة فقط . اما التاريخ فمن المستحيل ان يعود ويبدأ من نقطة الصفر .

ومن المؤسف وغير المجدي أن نحاول ، كما حصل في روسيا انشاء رأسمالية دولة ، اي رأسمالية موظفين ، بدل الرأسمالية الخاصة .

انطلاقا من كل ذلك فان برنامج الحزب التقدمي الاشتراكي يهدف الى ايجاد صيغة واقعية تحتل من ضمنها « الفكرة التعاونية » مكانة الصدارة . كما ان برنامج حزبنا يفترض استمرار الملكية الخاصة بصفتها وظيفة اجتماعية ، بحيث لا تعني المصادرة عملية تجريد غير عادلة ، فالبرنامج يعتبر عملية التملك العمومي على انها عملية « جماعية » وليست تأميما تقوم به الدولة . اي اننا نفهم الاشتراكية على انها تعاون أي انها اكثر ملاءمة واكثر انسانية .

يقول البرنامج بالحرف الواحد :

٢) « وضع وتطبيق مجموع قانوني عادل للملكية والرأسمال والعمل يؤمن بينها التعاون والانسجام الرامي الى الرخاء العام ويستمد من وظيفتها الاقتصادية والاجتماعية:

أ) في المرحلة الحالية من تطور الجماعة تعتبر الملكية مرتكز حرية الفرد طمأنينته واستمراره ، وبقاء الأسرة وعامل انتاج وحافز للمبادرة الشخصية ، على ان لا تكون علة تجميد أو تعقيم للثروة ولا أداة للطفيلية الاجتماعية والكسل ، ولا عامل سلطة وسيلة ضغط وان لا لا تتعارض مع مقتضيات التملك العمومي .

ب) العمل شرعة الحياة البشرية ونبالتها ، هو الشرط الجوهري لامكانية الانتاج والجدوى في المجتمع (فمن يقدر ولا يعمل لا يحق له ان يأكل) .

ج) يؤمن هذه المبادىء :

ــ التملك العمومي ، تأميم جميع المؤسسات التي لها صفة عمومية او لها اهمية خاصة في اقتصاديات البلاد او في حياتها الاجتماعية والسياسية .

ــ تصفية املاك الدولة ، الخاصة ومصادرة الاملاك الزراعية والعقارية المهملة وتوزيعها ووضع ضريبة ارث تصاعدية .

ــ « تقسيم الملكيات الزراعية الكبيرة وبيعها بالتقسيط من الفلاحين المرابعين وعمال الزراعة ، والقضاء على نظام المرابعة الذي يشبه اقطاعية القرون الوسطى وتنشيط التعاون الزراعي وايجاد نظام ملائم للتسليف الزراعي » .

ــ « الحد بواسطة الضرائب من الدخل الفاحش على التكديس الخطر والتعقيم للرساميل والاموال غير المنقولة » .

ــ « تبني سياسة الطمأنينة واستقرار نقدية تزيل عدم الجدوى من المضاربة ومن تجميد المال العقيم وتشجع توظيف وتداول الرساميل وانشاء مؤسسة اصدار قومية » .

ــ « التنافس الحر وحرية العمل والانجاز ، في نطاق التوجه الاقتصادي العام ، من ضمن الاصول المهنية والحيز الاجتماعي ، ومنع تكتلات الرساميل او الاشخاص الرامية الى خنق او ازالة هذه الحريات خدمة لمصالح خاصة » .

ــ « اعتماد النظام التعاوني حيث يمكن في مختلف فروع الانتاج والاستهلاك » .

ــ « جعل الشغيلة ذوي مصلحة في نجاح العمل وخاصة في المساهمة في الربح . فالعامل شريك صاحب العمل بحيث تكون له أجرته ، اما الارباح الصافية فتقسم وفقا لنسبة عادلة بين الرأسمال واليد العاملة » .

ــ « تزويد العامل بالآلة اوسع ما يمكن ، تعزيزا لقوة الانتاج وانقاصا لساعات العمل « على مجموع العمال » .

٣) « استخدام الضرائب والنفقات العامة كعوامل توجيه اقتصادي واداة استقرار وعدل اجتماعي » .

ــ « تنظيم الادخار الالزامي مما سيؤمن التملك بحسب المبدأ « كل لبناني ملاك » (ص ١٦) وهناك ايضا العديد من البنود المتعلقة بالموضوع لا مجال للاشارة اليها هنا .

سوف انهي كلامي هنا واختتمه متمنيا ، مع كل لبناني خير ، وكل مواطن صالح في اي مكان ان نأخذ معا بهذا المبدأ الذي يختصر برنامجنا : أن التجربة فقط تؤخذ بعين الحساب ، اي كل ما أكدت التجربة التاريخية صحته ، ونتبناه ونجعله من تراثنا . لكننا لا نرغب ابدا في اختبار افكار نظرية. ان الضحايا التي تسببت بها العقلانية الدوغمائية الجامدة (على شكل العقيدة الموسكوبية) يجب ان تدفعنا الى التفكير بهؤلاء البؤساء الذين كانوا ميدانا لتجربة المؤسسات السعيدة ويجب الا تنسينا أن الشعوب والافراد ليسوا ادوات التجربة « كخنازير الهند » . ان التجربة العمالية البريطانية هي مثال لنا وعلينا ان نعرف انه اذا كانت الديانات لغير البطون الفارغة فالانسان في النهاية تفوق قيمته قيمة الخبز الذي يأكله وان « الاقتصاد » يعني في النهاية « الحكمة » .

وباعتقادنا ان مواجهة « الاشياء » المتعلقة بالانسان وايجاد حلول لها يجب ان يتم بروح هذه الحكمة ، ونعني الحكمة هنا بمفهومها القديم . هذا هو الثمن المطلوب حتى تتحول المؤسسا تالاقتصادية الى مؤسسات انسانية لان **« الاقتصاد » في النهاية ليس غاية ، بل وسيلة لتحقيق الانسان .**

نحو قــوة ثالثة

نترك الكلام اليوم للسيد كمال جنبلاط .

سوف يجد القاريء في ما يلي النص الكامل للرسالة التي أعلنت عنها جريدة (لوران **L'Orient**) **يوم الخميس** والتي كتبها **القائد الدرزي الشاب .**

واذا وضعنا جانبا الافكار المعقــدة المرتبطة بالعلمنة البيولوجية التي يستند **اليها نائب المختار ة، فاننا نجــد ان** المشروع الاشتراكي الذي يحمله ، قائم ، على فكرة بسيطة .

فماذا يقول لنا جنبلاط ؟

١) يقول آن الانسان — (واللبناني) — هو « حيوان اجتماعــي » .

٢) ان كل الشعوب قد بلغت هذه المرحلة من تطورها التاريخي التي هي ، بالتحديد ، « النقطة الحاسمة في طور تجمعهــا » .

٣) كما يقول ان قيام اشتراكية لبنانية هو السبيل الوحيد لحل التعارضات ذات الطابع العشائري ، والتعارضات بين الجماعات ، ولصهر القيم ، والطاقات الوطنية في اطــار **اقتصاد امة بلا طبقات .**

والمهمة بالنسبة الينا في هذا النقاش ان هذه الاشياء يقولها ويريدها سيد قصر يبلغ الثلاثين من العمر ويمثل أقدم ما في الشوف من قوى محافظة . وفي هذا الاطار يأخذ النقاش معناه الاساسي العميق .

يقول مراسلنا : « ليس اللون الاحمر سوى لــــون آمالنا » . لكننا سنرى أنه لا يخشى اكثر الاشياء تقــدما من الثورة الاجتماعية . وهو يؤمن بقيام « قوة ثالثة عالمية » ، لم تكن الانظمة الفاشية والشيوعية ، حسبما يقول ، الا تصويرا مسبقا لها .

وربما رؤيا هذا الشاب المتشامخ والهادىء — الذي يقال عنه انه شاب « خيالي » ليست سوى رؤيا حــادة لما هــو آت ...

جورج نقــاش

رسالة السيــد جنبلاط

ايها الصديــق ،

بعد ان تكرمتم بفتح صفحــات جريدتكم لي ، سوف اغتنم الفرصة المتاحة أمامي للتعليق على المقال الوجيه الذي خصصتم به الحزب التقدمــــي الاشتراكي ، والــذي كان عنوانه : « المعول والقلم » .

تاريخ فكــرة وحركة

كانت بذور الحزب التقدمي الاشتراكي موجودة في فكرة قديمة راودتني منذ أكثر من عشر سنوات ، وعبرت عنها في العديد من الخطب والرسائل (الكلمة التي القيتها لمناسبــة نهاية السنة الجامعية في كلية الحقوق ، الرسالة الى الجنرال كاترو Catroux ، ألخ .. وخاصــة في التمنيــات التي وجهتهالمناسبة السنة الجديدة في مقال نشر في مجلة « الريفو دي ليبان » Revue du Liban **بتاريخ ٣١** كانون الاول ١٩٤٤ حيث قلت بالتحديد :

« انني اتمنى ان نكتشف (بعد هذا الفشل المروع الذي أصاب الانظمة البرلمانية هنا ، كما في فرنسا ، او ايطاليا ، او **المانيا** Weimarienne **الغيمارية** وفي العديد من البلدان الاخرى) اتمنى ان نكتشف هذه الصيغة الجديدة للديموقراطية التي يتوق العالم اليها وهي صيغة (ربما اجتماعية) مــن **شأنها أن توفق بين : الانضباط والحرية ، النظام والتطور ،**

التقليد والتقدم ، الدين وعملية فصله عن المستوى الزمني . الاشتراكية والملكية الخاصة كما يمكنها أن توفق — على مستوى ارفع — بين المثالية والواقعية وبين الروحانية والسياسة » .

ولقد تم تعميق هذه الفكرة المتعلقة « بصيغة جديدة للديموقراطية » في مقالات تم نشرها في « دفاتر الشرق » وفي محاضرات القيت في « الجامعة الاميركية » وفي « الندوة اللبنانية » .

ولقد عادت هذه الفكرة لتصبح مدار بحث جماعي قام به بعض الاصدقاء (من موظفين وعمال ومثقفين) على امتداد بضعة أشهر متتالية (صيف ١٩٤٦) .. ولقد شارك استاذان جامعيان في هذا العمل : السيد سعيد حمادة الذي كان له الفضل في ايجاد بعض الصيغ الموفقة ذات الاتجاه الاشتراكي ، والسيد جوزف نجار الذي قدم مساهمة واسعة في القسم الاقتصادي والثقافي من الميثاق .

ولقد شارك العديد من المثقفين اللبنانيين ومن مختلف الاتجاهات والجماعات في بلورة الفكرة . ثم كانت مرحلة من التوقف لتعميق الفكرة وللقيام بالنقد الذاتي .

حزب الانصهار (١)

لقد تم في بادىء الامر فصل الفكرة عن قشرتها (وهي قشرة قومية بالطبع ... في بلد لا كلام فيه طوال اليوم الا عن العروبة و « اللبنانية » .

ثم تم ربط أطراف الفكرة ببعضها ، وتحويلها الى عقيدة مترابطة في جسم متماسك تنصهر فيه الاجزاء متناسقة في

(١) «Un parti de synthèse»

تركيبة عضوية حية وذلك رغم الاصول المختلفة لهذه الاجزاء وانتمائها الى ثقافات متعددة والى تجارب تاريخية متعارضة في مظاهرها .

وفي عرض علمي استبق العقيدة نفسها تم ربط « الفكرة بأكثر نظريات التطور البيولوجي والاجتماعي عصرية وتقدما ، كما تم الحاقها بالعناصر الاخرى الاساسية المستمدة في العلوم الوضعية في حقول المادة والروح ، والتي اعتمدنا مبدئيا نتائجها وتطوراتها النهائية (البند الاول — الفقرة ٣ من الميثاق) .

ان فكرة الحزب التقدمي الاشتراكي هي ، في نموها وتطورها وتبدلاتها وتكوينها المتنوع والكادح ، هي محاولة صهر الفكر والتجربة الانسانيين . ان الحزب التقدمي الاشتراكي هو **حزب الانصهار** ، اذا ما عدنا الى المصطلحات الهيغيلية ...

صحيح ان حزبنا قد ولد تحت علامة انشطار العالم المشؤومة ، الى كتلتين ايديولوجيتين متصارعتين — رغم تكاملها الفعلي — لكنه يطمح لكي يكون فكرة كاملة . لا نريد ان نكون شموليين لكننا لن ننكر او نرفض اي عنصر من عناصر التراث الثقافي والفكري او اية تجربة بشرية .

طور التجمع البشري والانحرافات الكلية (٢)

اذا نظرنا الى الظواهر الكلية من زاوية أخرى (زاوية نمو الجنس البشري التسلسلي — التطوري) يتبين لنا ان هذه الظواهر (على عيوبها) ليست سوى اشارات ومراحل محددة في اطار الخط الاساسي للحركة الكونية وهي تجسد

(٢) Déviations totalitaires

في ذلك شيء يدعو الى الاستغراب لان الحقيقة هي في النهاية واحدة رغم اشكالها المتعددة والمتنوعة .

قوة ثالثة توشك علي بالولادة

نحن نطمح ان نكون هنا السباقين لتحقيق وصنع هذه القوة الثالثة العالمية الايديولوجية والسياسية ، وذلك على غرار بعض الاحزاب الديموقراطية الاجتماعية في اوروبا واميركا او بعض الاحزاب العمالية في الشرق الاقصى . وهذه القوة الثالثة سوف تقوم بالضرورة على انقاض الاعمال الهدامة والانقسامات والاحقاد والاوهام التي يتحمل مسؤوليتها التيار العقلي المحض .

أما على اصعدة اخرى — كالصعيد الاجتماعي مثلا — فنحن نريد ان ندفع الى اعادة التوفيق والتوحيد في المجالين الاجتماعي والانساني على قاعدة الاخاء والعدالة والتعاون والمساواة الوظيفية . وفي هذا الاطار سوف يتحول المجتمع ، والدولة بالتالي الى نوع من « الجسم الحي » يكون لكل مواطن فيه وظيفته على أساس قدراته الذاتية وعقله ودماغه وقلبه وليس بفضل امتيازات عائلية او بفضل ثروته او انتمائه الطبقي . أي ان المجتمع سوف يكون مجتمعا بلا طبقات ، سوف يكون مجتمعا تعاونيا بين المواطنين والتكتلات الجماعية وليس مجتمعا مزدوج الرأس تكون سمته الاساسية الصراع بين المصالح والتجمعات .

نحن نريد أن نكون حزب التجمع والصهر والتوحيد الاجتماعي والانساني تحت عنوان الايمان بالتطور (اي الايمان بالحياة والانسان) والقوة المعنوية والمحبة .

لاول مرة على الصعيد البشري مرحلة التجمع والتكتل الجماعي التي يبدو ان الجنس البشري قد بلغها .

وبعد تكاثره بما فيه الكفاية الا ينزع الانسان الى الانضمام الى امثاله ليشكل معهم كلا عضويا متميزا الى هذا الحد او ذاك ؟ اوليس هذا التكتل على المستوى الانساني نوعا من التكرار لتجربة المرجان والازج والمنملة والقفير ؟

يقول دو شاردان de Chardin « تبدو الانسانية تقترب غينا من نقطة التجمع البشري الحاسمة » .

ومن هذه الوجهة (اي من وجهة التطور) فان التجارب الكلية — الشيوعية او الفاشية — التي لعبت دورا ايجابيا في سبيل تقدم التاريخ باتجاهنا ، تصبح انحرافات تذبذبية ، متطرفة وهائجة ، وبالتالي ليست سوى مراحل من التطور ، تخطاها ويتخطاها الزمن اكثر فأكثر . وتجدر الاشارة هنا الى أن الزمن قد تخطى ايضا ، وبالطبع ، مراحل الرأسمالية الغربية او الاميركية ، والمحاولات السان سيمونية (St. Simonisme) أو الاشتراكية البورجوازية وكل ما الى ذلك من صيغ الديموقراطية الاصلاحية أو ذات الطابع الابوي .

ان الصراعات الطبقية والعقائد العرقية او القومية او الطبقية ليست سوى حقبات أو مراحل من التطور التاريخي التذبذبي ، التعددي ، المتباعد ، وهو تطور ينزع اكثر فأكثر الان ولاسباب بيولوجية وعوامل تقنية معروفة ، الى الاستقامة والتوارد والتركز على نفسه بشكل حزمة ليأخذ طابع واحدية (٣) قد تتطور عمقا واغتناء الى ما لا نهاية . وليس

(٣) Monisme واحدية ، احدية وحدة الوجود

لدى آسيا ما تعطيه

انني اعتقد شخصيا ان لدى آسيا – ارض المسيح ومحمد وكونفوشيوس وبوذا – شيئا تعطيه للعالم وهذا الشيء يختلف عن المادية البورجوازية او عن المادة الجدلية ، يختلف عن الديكتاتورية العرقية او القارية او الطبقية . وليس هذا الشيء ايضا بصيغة تسوية بسيطة لن تكون سوى خدعة وظلم مستمر وفضيحة . اما المطلوب تحقيقه فهو انسجام وتوافق اجتماعي وبشري كامل ، وفي هذا المشروع مخاطرة .

اما نحن ، فبتبنينا لنظرية التطور والاستيطان الكامل للانسان ، أردنا ان نعالج الكائن بكليته التامة من الناحية البيولوجية والاجتماعية والروحية .

« ليس اللون الاحمر سوى لون أملنا »

يتبين من كل ما سبق اننا لسنا من « الاسياد الحمر » واننا بعيدون كل البعد عن مراكيز القرن الثامن عشر ، « الفلاسفة » او عن « الدوقيات الرومنطيقية في الجمهورية الثالثة » .

ان عقدة نقص تدفع العناصر الضعيفة وغير المستقرة نحو العقائد المتطرفة . اما نحن بصفتنا طليعة ، لسنا مصابين بهذه العقدة . هذا لا يعني اننا لا نفضل هذه العقائد على « الانحلال والتفسخ البورجوازي » . لكننا نعود لنؤكد ان بالواقع ليس اللون الاحمر سوى لون رايتنا ولون آمالنا .

قلنا ان مشروعنا هذا هو نوع من المخاطرة ! من هنا

يمكننا فهم هذه الاهمية التي نوليها لانشاء بيوت للشبيبة وتعاونيات للعمل والانتاج . اننا نفهم هذه المؤسسات على **أنها مراكز تجديد النسل** على الاصعدة الاخلاقية والروحية والجسدية . « كما اننا نفهمها مدرسة للاجيال القادمة ونوعا من المصانع . « تعيد للفلاح ايمانه بالارض وتعطي العامل **مسؤولية العمل والامل** ، ولرب العمل الشرف والشعور بسعادة « اقتسام الخبز » ، كما من شأنها أعطاء المثقف فرصة التدريب واغناء النفس بواسطة التعاون الملائم على صعيد العمل اليدوي او غير اليدوي ، خاصة وأن هؤلاء المثقفين يخشون الجماهير بصورة عامة ، بسبب نقص في الشخصية وافتقارهم لهذا الاحساس بالوقائع الانسانية النهائية ، ولهذا الحس بوجودية تطورية اجتماعية وبشرية . اما معظم الشباب ، فلم يلمس بعد ، وبسبب الوقوع تحت تأثير هواجس مركزها الذات (رومنطيقية كانت أم نفعية) ، ان الحياة يمكن ردها في النهاية الى ما يلي : « **الله والغير هما الشيء نفسه ، والاساس هو الخروج من الذات** » ...

المطلوب هو التوفيق

في ما عدا ذلك ، وكما تلاحظون بصواب ، فلا نعتقد اننا على هامش الوقائع التي تحيط بنا وهي :

– عملية التصنيع المتنامي في لبنان .

– تصلب و « قصر نظر » بورجوازية رأسمالية ومالية مكونة بمعظمها من « حديثي النعمة » واثرياء الحرب .

– الغياب الكامل (الا في ما يتعلق بالشيوعية والشبيبة المسيحية (لاي نوع من العقيدة الاجتماعية في البلاد ، بعد

ان توقف نمو تشكيلات الشبيبة عند حدود المرحلة الطائفية ،
أي عند مرحلة ما قبل القومية .

وامام هذا الخليط من الاشياء القديمة المتنوعة المكونة
للبنان ، لبنان الذي يزيد انقسامه على نفسه بقدر ما يتقدم ،
نحن نعتقد ، وبحق ، ان المجال ربما الوحيد للالتقاء هـو
الانصهار والتعاون على الصعيد الاجتماعي .

ايها الصديق العزيز ، أنت على صواب عندما تنصحنا
بالحذر والعمل بروية في هذا البلد الذي يخاف التطور .

أن ملاحظاتكم صحيحة ودقيقة . خاصة وان في خلاصة
الامور يمكننا القول ان عملنا شاق ودؤوب ، كأعمال العديد
من الشبان .

ذلك أن المطلوب في الحقيقة هو اعادة التوفيق بين
الاخلاق والدولة ، بين الجماهير والنخبة ، بين المواطن
والجماعة ، بين القومية وتيار التكور البشري ، بين الديانة
الشعبية والروحانية بين الفرد والارض ، بين الانسان
والعمل ، وبين التقنية والثقافة .

اننا كعلامة ورمز لهذه الازمنة ، أردنا ونحن نستقبل
الف سنة جديدة من السلام ان نكون هذا الشاب المؤمن
والباحث عن اتمام الحلم الكبير والمغامرة الكبرى .

كمال جنبلاط

(الاوريان — ٢١ كانون الثاني ١٩٥٠)

خيارات كمال جنبلاط

بقلم اندريه بركوف

لكمال جنبلاط فضل لا جدل فيه الا وهو انه لا يمكن ان
يترك احد غير مكترث تجاهه . لكمال جنبلاط من يحمل امامه
المبخرة ويتحمس له بشدة ، وله بالمقابل من يحاول الحط من
قدره بانفعال . كل تصريح يصدر عنه ، أكان بصفته وزيرا
أو رئيس حزب او قائدا من الشوف ، يثير التعليق والمواقف
المناقضة او المناصرة .

ان شخصية وزير الاشغال العامة وخياراته الاساسية
تفرض اتخاذ المواقف . ولهذا السبب يمثل كمال جنبلاط ،
على اللوحة السياسية في هذا البلد ، شخصية متمردة الى
حد ما ، ميالة الى العصيان ، ينتظر منها كل شيء او لا شيء .
لكن لا يمكن وبأي شكل أن يتجاهلها احد . لقد تحادث اندريه
بركوف في المختارة مع رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي
تكلم كمال جنبلاط مع محاوره عن مفاهيمه الايديولوجية
والاخلاقية ، والميتافيزيقية . تكلم عن الله ، عن الانسان ،
عن لبنان ، عن الاشتراكية ، عن المثقفين . وكان دائما يبتسم
ويسأل ويتساءل : « أتعتقد فعلا أن ما نقوله قد يثير اهتمام

احد ؟ » . كان على امتداد المقابلـــة هادىء النفس متحليا
بلطافة دائمة .

ان ما يقوله جنبلاط جدير بأن نستمع اليه ، اكنا من
مناصريه او اخصامه ، ولو كان ذلك من باب الاخذ بالعلـــم
فقـــط !

— من هم الكتاب والمفكرين الذين « اثروا بك » كمـــا
يقـــال ؟

— في مرحلة الشباب كان هنـــاك باسكال Pascal
وبرغسون Bergson ثم أجتذبتني بقوة النظريات التطورية .
تيلارد دو شاردان Teilhard de Chardin وجفاديس شاندرا
Jagadis Chandra-Bose ثم الكتب المقدسة : **التوراة، الانجيل ،**
القرآن ، ثم الصوفيون (في الاسلام) والروحانيون المسيحيون
الذين يثيرون شغفي كما انني تأثرت ايضا ببلونديل Blondel
رغم أن افكاره تقف على نقيض آراء برغسون . وتأثرت ايضا
بوليم جيمس William James .

كما ان كارل ماركس كان شخصا — ذا اهمية كبيرة
بالنسبة لي . لم اهمل ايضا المفكرين الالمان الذين مهدوا لقيام
الايديولوجية النازية .

وذلك ليس لانني اشارك بأي شيء مناصريهم وأتباعهم
بل لانني اعتقد ان هناك بعض النقاط الواردة في مؤلفاتهم
والتي يمكن الاستفادة منها، خاصة تلك التي تتعلق بضرورة
وجود نخبة سليمة والتي استثني منهـــا بالطبـــع الناحيـــة
العنصريـــة .

— وما هو بالتالي تحديدكم لمفهوم النخبة ؟

— لنقل ان مفهومي للنخبة له طابع بيولوجي . اعتقد
ان « الاقتصاد » قد استأثر بالاهتمام لزمن طويل ، ويجب منذ
الان الاعتناء بالصحة الجسدية والذهنية . يجـــب ترفيـــع
هناك قوانين وراثية لا جدل فيها، وقد قدم مندل Mendel
البراهين الكافية حولها الخ . . .

— لكن كيف يمكن تكوين هذه النخبة ؟ واي تنظيم لاية
دولة سوف يدمج ويصهر هذه النخبة في الامة ؟

« العقـــل المترفـــع »

يجب النظر الى الامور هنا بصورة شمولية ، يجـــب
تحديد فكرة مستقبلية شاملة تمكن حتـــى من تخطي مرحلة
التجمع البشري ، وفي هذا الافق المستقبلي المنشود يكـــون
الصراع القائم بين الفرد والمجتمع ، قد وجد حـــلا في عملية
تركيـــب منسجمـــة . . .

علينا ان نكون قابلات التاريخ . . .

جدليـــة . . .

طبعا ، كل شيء جدلي . عندما خلق الله العالم اوجد
جدلية خاصة به . الا ان على هذه الجدلية ان تطمح الـــى
« العقل الاعلى » ، الى هذا العقل المترفع الذي طالما تكلم
عنه « الهنادكة » والذي هو الانسجام الحقيقي الذي لا يفعل
البشر شيئا سوى العمل على هدمه وتدميره .

ما هذا الانسجام الذي تتكلمون عنه . . .

— هو داخلي بطبيعة الحال . انه يعني اعماق الانسان ويتخطى المستويين الاجتماعي والاقتصادي . هذا الانسجام هو الانسانية الحقيقية هو الذي يمكنني من توجيه الكلام اليك ويمكنك من فهمه ، على اختلاف الكلام الذي نستعمله : عربي ، فرنسي ، ... تكلمت في ما سبق عن « العقل الاعلى » . انني لا أعني بهذه الكلمة الاختبار العلمي موضوعيا كان أم ذاتيا ، بل الاختبار الصوفي وهو الاختبار الذي من شأنه خلق الوحدة والحقيقة . ان الاختبار الاول (العلمي) يعالج الاشياء بينما يجد الثاني جذوره في نفسنا ، في أعماقنا ، نحن الذين نجدد خلق العالم في كل لحظة .

— ولكن ما هو هذا الواقع ؟

— في كل شيء نجد ما هو ظاهريا وما هو فعلي ، ما هو وهمي وما هو حقيقي . لنأخذ الله : ان معظم الناس يحب ظواهر الله الخارجية أكانت هذه الظواهر تتخذ اشكال الصور أو التماثيل او « القوى العليا » . ومن وجهة النظر هذه لقد عملت الاكليروسية الكثير لتضليل البشر ودفعهم الى مأزق الاوهام غير المجدية .

ان السعي الحقيقي نحو الافضل هو هذا الذي يدفعنا « لنصبح نحن الله » اي لنعود ونجد ثانية وحدة كل شيء . وهذا هو هدف التجربة الصوفية .

« خلع كونفوشيوس عن عرشه »

— ما هي أدوات ووسائل هذا السعي ؟

— لقد سبقتنا الآلاف من الكائنات على هذا « الدرب

الملكي » ، أكان ذلك من الهند او من مصر القديمة ، او ايران او اليونان ، كما يمكننا التكلم هنا عن هؤلاء المتصوفين المسلمين الرائعين ، ومنهم ابو يزيد البسطامي ، كما ان للدروز ، وبفضل ديانتهم ، قدرة جزئية على الاتصال بهذا الواقع الداخلي ...

— هل تعتقد ان هذا الاسلوب لا يزال ممكنا في ايامنا هذه ؟

— لم لا ؟ ولذلك نحن بحاجة الى كونفوشيوس جديد . لكن كونفوشيوس قد « خلع عن عرشه » بواسطة هذه الطبقة التقنوقراطية الجديدة ، التي تبشرنا بمجازر بشرية جميلة .

ان الحرب اصبحت بفضل هؤلاء على وشك الاندلاع . وسوف تنفجر قبل اقل من عشرين سنة .

— والسبب ؟

— ان البشر يتنكرون لماضيهم ، يعبدون العجل الذهبي ... بتقوى ، أليس مثل الملاك الذي يرمي محتوى الكأس في البحر تصوراً مسبقا للقنبلة الذرية ؟

— لا تترك للبشر اي مجال للامل ...

— بلى . وحتى يصبح الامل مجديا ، على الروحانية والسياسة أن تكون شيئا واحداً ، طالما ان العلم نفسه ، بعالمه ذي الابعاد الاربعة وبرموزه الشبه السرية ، وبلغته التي لا يفهمها سوى جماعة من المطلعين ، اصبح نوعا من الروحانية .

لكن هذه الجماعة من « المطلعين » قامت بكشف ثمار معرفتها لغير المطلعين الذين يهددون في كل لحظـة بتفجير هذه الكرة الارضية . وهنا يكمن الخلل الدائم في المعادلة بين التقدم التقني وتأخر الانسان على الصعيد الاخلاقي . وربما كان اليونانيون على حق عندما كانوا يخفون اكتشافاتهم ، ان الانسان يقف بعيدا جدا عما يجب ان يكون عليه ، وهـو منقطع عن الثقافات القديمة كما أنه يسيء تفسير الديانات .

— يبدو فعلا انك تقلل مـن اهمية هذا العالم الذي نعيش ؟

ابدا ، انني أعتقد فقط انه مـن الضروري ان يحافظ المرء من حين الى آخر على نوع من الانقطاع بين ذاته والعالم . علينا الا نكون باستمرار عبيد الاشياء والاحداث . بل علينا في وقت معين ، ان ننفصل ونخرج من الجسد . وعلى سبيل المثال نقول ان النوم هـو جزء ناشط لا يتجزأ من حياتنا ، يوازي اهمية حالة اليقظة ، فهل نحن فعلا مستيقظون لان أعيننا مفتوحة ؟ كم من النائمين من حولنا ... يمشون ويأكلون ويستمعون ؟ الم يقل ابن الرومي : « هنيئا لهـؤلاء الذيـن ينامـون .. » .

خيـار واحـد

— ولكن كيف توفق بين هذا الاختيار الصوفي وبين مواقفك الاشتراكية التي تتطلب مبدئيا كفاحا مستمرا واهتماما ثابتا « بأشياء » هذا العالم ؟ اليس في ذلك تناقض اساسي ؟

— دعوني اقل لكم شيئين من شأنهما ، على ما اعتقد توضيح رأيي وتبيان غياب كل تعارض في ما اتقدم به .

اولا : انا من القائلين باشتراكية « متأنسنه » (١) ، من شأنها ان تتخطى ، على المـدى البعيد ، مفهوم المادية الجدلية ، وبالطبع لمفاهيم اليمين واليسار معنى ، ولكـن طبقا للمرحلة والزمن والمكان ، والظروف ، ولنقل بشكل عام ان الانتماء اليساري يعني الموافقة على رؤيا تطورية بيولوجية في الوقت الذي يقف اليمين الى جانب الجمود والتحجـر ويتشنج بتمسكه بمفهوم جامد لتاريـخ العالم . انا اكره الجمود . ولذا فأنا انتمي الى اليسار طبيعيا . الا ان هذه الافكار جمعاء سوف تجد حلولا تركيبية « انصهارية » مناسبة في المستقبـل .

ثانيا : لم يكن لدي في البداية سوى خيار الذهاب الى منطقة صحراوية او منكوبة وقاحلة، كأن أعمل طبيبا في افريقيا مثلا او أمارس رسالة مهما اختلف نوعها . وكنت على وشك سلوك هذا الدرب عندما توفي ابن عمي فتغيرت مشاريعي وفهمت ان واجبي كان يقضي ان اعمل هنا .

صدقني : لو لم اقم باستمرار وانتظام بهـذه العملية التأملية الجذرية ، وبهذا البحث الدؤوب عن كلية الكائن ، لما كان لي هذه القدرة على الكفاح المتواصل في سبيل الناس ، في المجالين السياسي والاجتماعي .

ان تجربتي الروحانية تدفعنـي لعدم القبول والتسليم بالاشياء كما هي ، كما تدفعني لالقاء ما في نفسي على العالم .

لبنان يتجه نحـو الاشتراكية

— كيف تحدد الموقف على ضوء ما قلته ؟

(١) Hominisant

— لا بأس . أن لبنان يسير نحو الاشتراكية وبسرعة تفوق ما تتصورون ...

— وكيف ترى ذلك ؟

— على ضوء بعض الانجازات الحديثة . فالدولة تدير الان شؤون بعض المكاتب والمصالح . وقد تملكت العديد من وسائل الانتاج والقطاعات الاقتصادية . فهي التي تهتم مثلا ببيع الحمضيات والحبوب (القمح) .. لكن ما نفتقد اليه حتى الان هو تعاون فعلي بين الدولة والشعب .

— لماذا ؟

— لا أحد يثق بالدولة وهي دولة تعكس جزئيا عيوب وتجاوزات مجتمع بأكمله .

— وتعتقد أنك ستتمكن من قلب هذه البنى القائمة ؟

— سوف نحاول .

— واذا فشلتم ؟

— سيأتي غيرنا من بعدنا ... وعلى أي حال انا ضد الاسراع المصطنع عن طريق المجازر ومعسكرات الاعتقال .

— الا تعتقد ان على هذه العملية الاصلاحية ان تأتي من فوق ؟

— وكيف تريد ذلك والدولة نفسها تفتقر الى السلطان . ويقال ان في اللغة اليونانية وحسب اصول الكلمة عبارة الدولة والسلطان تعني الشيء نفسه ! من حسن حظنا أن لدينا على رأس السلطة رئيسا للجمهورية يتمتع بمزايا « هلينية » للغاية اما البرلمان ، فهو بعيدا جدا عن كل قيمة « سقراطية » .

— ما هو رأيك بالاضرابات الاخيرة ؟

— انها التعبير عن وعي اجتماعي مناوىء لهذه الطبقة الثرية المتاجرة التي تريد المحافظة وبأي ثمن على امتيازاتها . لكنني أعتقد انها سوف تقتنع في النهاية ، ليس الاثرياء بهذا الغباء ، انهم فهموا انه يترتب عليهم التخفيف من تشنجهم وتصلبهم حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بما هو اساسي . كنت قد كلمتكم عن ضرورة ايجاد نخبة . أن معظم أثريائنا لم يتكونوا كنخبة الا بطريق عرضية ، بسبب الحرب العالمية الثانية .

ان مبلغ مليار ومئتي مليون ليرة قد ذهب في غضون خمس سنوات الى « جيوب فردية » بدل ان يذهب الى صندوق الدولة .

مجتمعنا هو مجتمع أثرياء الحرب الذين جمعوا اموالهم .. عن طريق الاسمنت أو النسيج .

ان مثقفينا يخافون

— هل تعتقد أن للمثقفين اللبنانيين دورا يلعبونه في صيرورة مستقبلنا ؟

— طبعا ، لكن على شرط ان يتمكنوا من التخلي عن آرائهم الطبقية المسبقة . ان الاكثرية الساحقة منهم تنتمي الى الطبقة البورجوازية . ومن الطبيعي ان يتمكنوا من العمل على انتشار الافكار بواسطة المناقشات الجماعية .. والفكر ينتظر دائما مهما كثرت العقبات . كان يقول فيفيكاناندا (١) « يمكن لخمسة أفكار صحيحة ودقيقة أن تتجسد حتى لو خرجت من أعمق هوة . »

(١) Vivekananda : penseur hindou (1863 - 1202)

لكن ولسوء حظنا ان نخبتنا المثقفة لا زالت تتمسك كثيرا برفاهيتها و « معاشاتها » الشهرية . لم تكافح يوما ولم تعرف معنى الالم على الاطلاق . نحن لم نعرف معنى «حرب تحرير» والوحيدون الذين عانوا وقاسوا من اي شيء، في مرحلة الاستقلال هم العمال والفلاحون . وباسم رفاهيتهم يرفض مثقفونا اتخاذ أي موقف . فهم يخشون اي اختيار ويخافون ان يصبحوا ضحايا اي اختيار . لكن الجماهير سوف تفرز قريبا مثقفيها وسيقاتل هؤلاء من اجلها وبدون اي تردد . اما الذين يفضلون الذهاب الى السينما والاهتمام بمهنتهم ، دون اي شيء آخر ، والذين ليس لهم اي احساس برسالتهم فسوف تستغني عنهم ونرتاح منهم .

تقدمت منذ فترة باقتراح يتعلق بمشاركة الاجراء في ادارة اعمال **المنشآت والمؤسسات ..**

ــ طبعا ، ومن شأن هكذا تدبير التخفيف من حالة التوتر القائمة بين رب العمل والعامل وسوف يأخذ كل منهم الاخر بعين الاعتبار . ليس هنالك اي سبب يبرر دفع اجر يتراوح بين ٦ و ١٠ ليرات لهذا بينما يربح ذاك مبالغ تقدر بالملايين .

ــ هل تعتقد انه بالامكان تطبيق هذا الاجراء ؟

ــ آمل ، وعلى أي حال لا موجب للاسراع بالامور . الم يلجأ سقراط الى استعمال عبارة توزي كلمة « قابلة » ؟ فلنكن في الوقت المناسب « قابلة التاريخ » ، واذا نجحنا فسنكون قد قمنا بعمل لا بأس به فعلا .

اجرى المقابلة : أ.ب لوجور
٢٤ آب سنة ١٩٦٦

بيان مشترك للحزب التقدمي الاشتراكي وحزب « براجا » الاشتراكي الهندي

ان مسؤولي الحزبين الموقعين هذا البيان قد قاموا بسلسلة من النقاشات والمقارنات والمقابلات في سبيل تنسيق عمل وسياسة كل منهما وبعث علاقات ملائمة وتوافق وتفاهم مشترك بين شعوب آسيا الغربية (الشرق الاوسط) . وفي ختام هذه المناقشات تبين ان هناك توافقا كاملا حول النقاط الاساسية التالية :

: السياسة الداخلية والسياسة الخارجية .

١) يشعر الحزبان باهتمام مشترك متزايد لمجرى وعناصر التطور الراهن ، على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي لشعوب آسيا وافريقيا خاصة وسائر اقطار العالم بشكل عام . ويشدد الحزبان على وجوب انهاء النفوذ والتدخلات الاجنبية في هذه الاقطار والبلدان . لكنه لا يسع الحزبان الا ان يشددا ايضا على ضرورة التنبه والحذر من المشاريع التي تحوكها الاقطاعية والرجعية من جهة او تلك التي تنظمها احدى « الامبرياليتين » في محاولة للحلول مكان الاستعمار القديم .

٢) يجب الغاء ورفض كل سياسة دينية في آسيا على انواعها واشكالها . ويجب بالاخص ادانة ورفض كل سياسة

او عمل يهدف الى اقامة تكتلات دينية او دول قائمة على الدين ، أو كيانات دينية لحساب هذا الشعب او ذاك ومهما اختلفت انواعها ، وذلك عملا بالمبدأ الجوهري القاضي بفصل الدين عن السياسة واخذاً بعين الاعتبار كل الآلام والمضايقات التي يمكن ان تولدها كل سياسة دينية (تعصب ، احقاد ، لاجئين ، الخ) .. ويجب ايضا وعلى صعيد اخر رفض وادانة كل مثال وكل سياسة قائمين على العنف (الحرب ، المكيافيلية ، الاكراه ، القهر ، الاغتيال ، الرعب على انواعه) . وذلك لان العنف هو في النهاية مناهض لجوهر الطبيعة الانسانية الاساسي كما انه يعكس عقدة نقص لدى الافراد والشعوب .

يجب الغاء السياسة الدينية والسياسة القائمة على العنف واستبدالها بسياسة وبوسائل عمل اخلاقية ، سليمة ، ومطابقة لمستلزمات الكرامة الانسانية . ولا يمكن تحقيق هذا المثل الا بسياسة ووسائل عمل اخلاقية ، سليمة ، ومطابقة لمستلزمات الكرامة الانسانية ، ولا يمكن تحقيق هذا المثل الا بسياسة ووسائل من شأنها توعية وتقوية ثقة الانسان بالانسان ، وتقوية ايمانه بنفسه وبتطور هادىء ومتفائل للحضارة ، مما يحول القوة المعنوية واللاعنف النشيط الفاعل الى اداة تجديد للانسان وعمله السياسي ، وبالتالي الى منهج للعمل الانساني الامثل ، ولممارسات سليمة واخلاقية من شأنها أن تتوج بالانتصار .

٣) ادانة كل قومية ضيقة وانعزالية وخاصة كل قومية آسيوية قائمة على التسلط العسكري والمعاداة للاجانب والتركيز الاناني .

ادانة كل محاولة تكتل اقليمية تعكس هكذا ذهنية .

ان عملية جمع الشعوب الاسيوية نفسها ، على المستوى القاري يجب أن تقوم على أسس صافية وخالية من أية خصوصيات من شأنها بعث التفرقة أو الدفع الى الانفصال ، ذلك أن تجمعا كهذا سوف يكون ، نظرا للظروف الخاصة القائمة في العالم ، الاداة « والبيئة » الطبيعيتين التي سوف تؤديان الى بروز اشتراكية جديدة وظهور القوة الثالثة العالمية » .

٤) يجب في الظروف الراهنة ، تحديد هذه « القوة الثالثة العالمية » بمفهوم أيجابي :

أ) في سبيل مساعدة الشعوب الكبيرة والصغيرة بشكل فعال على التحرر من قبضة الامبريالية الدولية .

ب) في سبيل بعث واكمال عملية تجمع وتعاون كافة الشعوب والامم على هذه الارض تحت رعاية حكومة عالمية تعمل بوحي القومية الاشتراكية بمفهومها الصحيح ، بعيدا عن المشاعر السياسية الدينية وعن كل قومية مركزة على الذات ، وكل اقليمية انعزالية ضيقة ، وذلك من أجل منع وتفادي تجميع العالم بواسطة العنف .

د) لبعث ونشر وتكوين اشتراكية جديدة من شأنها المحافظة على كرامة الانسان الحقيقية ، وتجنب اللجوء الى العنف ، ومن شأنها ايضا توجيه قدرات الحضارة المادية وفاعليتها المتزايدة في سبيل تنمية الشخصية الانسانية وتكوين « حضارة انسانية » .

ان هذه « القوة الثالثة » هي اليوم أكثر من اي وقت مضى ضرورة ملحة وذلك :

ا) لتسهيل وأكمال عملية تحرر الشعوب المستعمرة في افريقيا وآسيا وباقي الشعوب المقهورة في أوروبا وبقية انحاء العالم ، حتى تتمكن هذه الشعوب من تقرير مصيرها وشؤونها بحرية .

ب) ليتسنى لكافة الشعوب والامم اتخاذ المواقف السليمة والصحيحة ازاء الوضع الدولي الراهن ، وبذلك تجنب جميع شعوب العالم في معسكرين أحدهما تحت « الراية الاطلسية » والثاني تحت « الراية السوفياتية » .

ج) لمنع قيام مواثيق دفاعية اقليمية هي في الحقيقة مواثيق للحرب .

د) للقضاء على النتائج المضرة لسياسة التهدئة المسلحة التي يقوم بها المعسكران المتصارعان وذلك للحيلولة دون تأخر او طمس الحركة التحررية العالمية وخاصة في آسيا الغربية، في حال نجاح « حرب تحررية » تكون طبيعتها ، بدون شك قومية وليس اشتراكية . وفي هذا الاطار لا يسعنا الا ان نبتهج لقرار الدول العربية القاضي برفض ميثاق الشرق الاوسط . ونحن نأمل ان يكون هذا القرار بمثابة مساهمة من شأنها توعية الشعوب والبرلمانات وحكومات آسيا الغربية اكثر فأكثر ، كما نتمنى ان تتثبت لهم ضرورة انشاء « قوة ثالثة عالمية » .

هـ) لتمكين منظمة الامم المتحدة ، بفضل التأثير الفعلي والمساهمة الملائمة لهذه « القوة الثالثة » ، من تحقيق دورها كوسيلة سلام وتقدم عالميين ، وعلى أكمل وجه ، وتجنب استعمال هذه الجمعية ، من قبل الكتلتين الامبرياليتين ، كميدان للصراعات والمنافسات الدولية ولمنع تحويلها الى

« نقابلة للمصالح الانانية » او الى « مكتب لتخليص بضائع كل منهما » ومن شأن « قوة ثالثة » قائمة على هذه المبادىء الاسراع في تحويل منظمة الامم المتحدة الى نوع من المقدمة كحكومة عالمية .

ان هذه « القوة الثالثة العالمية » هي في الحقيقة المجهود الوحيد الفعلي والصادق من أجل قيام سلام حقيقي ، وذلك بسبب الحرم الذي يصدره هذا المجهود على مبدأ العنف وعلى اللجوء الى العنف ، ان في الصراعات الداخلية على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، او في مجال العلاقات بين الشعوب والدول . اما هذا الاستبعاد لمبدأ العنف فهو يشمل في آن معا العنف المادي الرأسمالي ، والعنف المادي الجدلي ، ذلك ان العنف لم يكن ابدا حلا فعليا لاية مشكلة فعلية او بعيدة المدى ، أكان ذلك على الصعيد الفردي او على الصعيد الجماعي .

وهذه « وهذه القوة الثالثة العالمية » تمثل بالقوة ثلثي العالم وهي مرتبطة بالضرورة بكل كتلة وبكل نظام من الانظمة المتعارضة .

II — اعلان الايمان باشتراكية جديدة

لقد تبين للحزبين الموقعين على هذه الوثيقة انه من المناسب والضروري ، في سياق هذا التصريح سياسة خارجية مشتركة، بتجديد الاعلان عن ايمانهم باشتراكية جديدة، متحررة من قيودها التقليدية ، متحولة في يد مجموعات منظمة ، الى أداة هائلة ومنتصرة من اجل تحرير الانسان . وهذا الاعلان بايمان الموقعين يتركز على النقاط الاساسية التالية :

ا) ان أي مفهوم سياسي « للقوة الثالثة العالمية » لا يمكن ان يتحقق على اكمل وجه ما لم تعي الاحزاب الاشتراكية

في العالم ضرورة تجديد الاشتراكية نفسها على اسس جديدة .
ومن شأن هذه الاسس الجديدة تصحيح او منع فشل
الاشتراكية في العالم ومنحها تقنية وروحا معنوية جديدتين
تمكنها من مجابهة النتائج البربرية واللااخلاقية لتطور العالم
الرأسمالي التقني الحديث ، تطورا لا انسانيا . وسوف
تشكل هذه الاسس الجديدة مساهمة من شأنها دعم
الاشتراكية في عملها الهادف الى تكوين حضارة انسانية
جديدة وهي حضارة قد تكون بمثابة تطور وكمال وانصهار
كافة التيارات والمنجزات التقدمية المفيدة على امتداد
التاريخ .

ان البنية التقليدية للاشتراكية القائمة في اوروبا غير
كافية لتمكين شعوب العالم من التحرر من كل خوف ، ولاعطاء
هذه الشعوب القدرة على استكمال هذه العملية التحررية
الشاملة على صعيد الشخصية ، والمجتمع .

وان الاشتراكية الاوروبية قد فشلت — بصفتها اداة
تاريخية — في تحقيق المثل الاشتراكية ان على الصعيد
المؤسسي او على الصعيد الانساني .

كما ان الاشتراكية الاوروبية قد فشلت في مشروعها
الهادف الى اكتساب وجه متميز في آن معا ، عن الديموقراطية
الرأسمالية والشيوعية الروسية ، وذلك لانه كان دائما
يستند الى التقنية اياها والى الروح التنظيمية والسياسية
نفسها .

واذا ارادت الاشتراكية ان تنجح فعليها اكتساب تقنية
وروحية جديدتين في المجالين المؤسسي والتنظيمي . بهذا

الشرط فقط ستكون ممكنة عملية تجديد الاشتراكية على
اسس جديدة .

وعلى هذا فان آسيا تمتلك على الصعيد التاريخي ،
والثقافي والتطوري المقومات الاساسية المطلوبة من اجل
ولادة هذه الاشتراكية الجديدة . كما أن لآسيا مقومات
وظروفا ملائمة من شأنها دفع هذه الاشتراكية الجديدة الى
أعلى درجات النمو .

ما هي الخطوط العريضة الموجهة لهذه الاشتراكية
الجديدة ؟

انها سوف تهدف اساسا الى تحقيق ما يلي :

١) أقصى درجات المساواة والعدل .

٢) مستوى معيشي لائق يهدف الى تحقيق انسجام
كامل بين الحاجات المادية والحاجات الاخلاقية للانسان ،
ويمكن من تجنب المأزق المزدوج المكون من المادية الرأسمالية
ومن المادية الجدلية .

٣) تحقيق التقنية في المجالين الزراعي والصناعي .
انجاز تنظيم قانوني يمكن من اخضاع التقنية البشرية للانسان
ومكرسة في سبيل نموه الجسدي والفكري والاخلاقي الكامل
ومنع التقنية من التحول الى قيود تكبل نمو الانسان المنسجم
والكامل . وعلى سبيل المثال يمكن اعتماد اللامركزية في
الصناعة بواسطة تنظيم يمكن من استبدال الخلايا الصناعية
الكبرى بوحدات تقنية صغيرة لا تتبدل فعاليتها ، الا ان
شروط عملها سوف تنسجم مع حياة الانسان .

٤) الحد قدر المستطاع من البيروقراطية . تشجيع التعاون في جميع المجالات وخاصة على صعيد الانتاج ، والتوزيع والاستهلاك .

٥) اقامة سلطة مرنة وقادرة في آن معا ، اضافة الى استبعاد الحريات الزائدة التي تبيحها الديموقراطية الرأسمالية البرلمانية ، والديكتاتورية القيصرية الفاشية او السوفياتية .

٦) اعتماد تقنية ملائمة على صعيد النضال السياسي والاقتصادي تكون مجردة من كل حقد طبقي مبنية على « اللاعنف المكافح » وعلى القوة الاخلاقية والمعنوية .

١٢ ـ الخاتمة

من الواضح اخيرا ان على الاحزاب الاشتراكية في آسيا أن تتعاون في سبيل تحقيق هذا المثل على أكمل وجه ، وان تمارس سياسة خارجية مشتركة هدفها تحقيق « قوة ثالثة بناءة » . وعلى هذه الاحزاب انتسعى الى التعاون مع الحركات السياسية المماثلة في اوروبا واميركا وافريقيا واكتساب مساعدتها لممارسة سياسة من شأنها توطيد وتوسيع هذه الحركات الى أقصى حد ممكن لتتمكن من المساهمة في اكمال الوعي الكوني .

وان التعاون بين الاحزاب الاشتراكية الاسيوية وعملية تنظيم « قوة ثالثة » لن يكون ممكنا ما لم تجتمع هذه الاحزاب لتعد لنفسها برنامج عمل وسياسة مشتركة .

وفي هذا الاطار نعلن عن سرورنا امام المبادرة التي

اتخذتها الاحزاب الاشتراكية العربية كي تلتقي في بيروت يومي الخامس والسادس من حزيران ١٩٥١ . كما اننا ننظر بابتهاج الى المبادرة التي اتخذها الحزب التقدمي الاشتراكي الهندي في سبيل « قوة ثالثة » منظمة والى الدعوة التي اطلقها لعقد مؤتمر للاحزاب الاشتراكية الآسيوية .

المفهوم الاشتراكي للتعليم في لبنان

من الضروري جدا ، ان نلفت النظر دائما الى استحالة الفصل في ذهننا من جهة بين التعليم مهما تكن قيمته الذاتية والتقدمية ، وبين التربية النفسانية والاخلاقية للنشىء ولكل المواطنين على اختلاف اعمارهم من جهة ثانية . اننا نحدد الثقافة الحقيقية على هذا الشكل . ولا يمكن لحضارة حقيقية ، مفيدة ، وانسانية ان تنبعث وتولد مجددا من تحت انقاض البراغماتية المنفعية الفردية او الجماعية التي تدمر كل القيم ، الا بهذا الثمن ، وبه فقط . ان هذا الجمع بين التعليم والتربية ، وهذه الاولوية المعطاة للتربية على صعيد الفرد كما على صعيد الجماهير ، لا بد منهما في اطار هذه الظروف المسيطرة على العالم ، وعشية تغيرات بدأت ترتسم ملامحها في لبنان وأصبحت على وشك التنفيذ .

ومن الضروري ايضا ان نفهم ونحدد الاطر التي سوف تمكن الاشتراكية التقدمية ، اي الاشتراكية المفهومة بصورة صحيحة ، من المساهمة في تنمية وتطوير التعليم في اتجاه محرر وانساني .

وليس تحديد هذه الاطر سوى توضيح مساهمة المفهوم الاشتراكي الملائم على صعيد التعليم في لبنان .

أ الاستقطاب حول المستوى الاجتماعي .

ان التربية الاشتراكية ، **كما يتبين من اسمها ، تركز** على بعث أفكار العدالة والاخاء والتعاون والتعاضد والتضامن الجماهيري والاشتراك الاجتماعي . ويتبين لنا هنا ان في مضمون كل من هذه الكلمات عودة الى الغير وعودة الى مفهوم العلاقة مع هذا الغير . فالفرد مكانه في اطار الجماعة وعلى التعليم ان يسعى الى ترسيخ معنى هذا الاتحاد ، وهذه الجماعية في ذهنه خاصة ، وان الفرد ليس خارج هذه الجماعية سوى امكانية صرف ، موجودة بالقوة .. وأنا لن أصل الى حد التكلم عن العقيدة الجماعية . والمطلوب هو ابراز الفكرة القائلة بأن « المجتمع كل عضوي حيويته في تنوعه ، لكل عمل فيه كرامته ولا تفضل مهنة على مهنة الا في تأمين انتظام المجتمع واستمراره وترقيه نحو الكمال » (الميثاق ص ١٥) . وتفترض هذه الوحدة في المستوى الاجتماعي ، تربية تسعى الى « صهر الشعب اللبناني في وحدة اجتماعية تامة » (الميثاق ص ١٤) . كما اننا نعتبر علمنة التعليم واعتماد « نظام الخدمة الاجتماعية الاجبارية » ، و « مكافحة الطبقية والاقطاعية » و « ايقاظ الشعور بالتضامن والمسؤولية الاجتماعيين » (الميثاق ص ١٤ — ١٦) ، و « بعث الحياة في المجتمع باحياء التراث الاقليمي المتجلي في المواسم والاعياد والشمائل والتقاليد والحكايات والالحان . والحرف القروية ، نعتبر كل هذه العناصر وسائل يمكن العودة اليها في سبيل اقامة نظام تعليمي اشتراكي .

كما اننا نعتبر ايضا ، ان للبيئة ولتحولات هذه البيئة دورا فعالا يوازي دور التعليم نفسه في تربية التلميذ او الطالب .

وما القول عن هؤلاء الشبان الناشطين بدأب واستمرار والذين يشاركون العمال الزراعيين والفلاحين اعمالهم بضعة أيام واسابيع في السنة مساهمين بذلك في عملية الاعمار الوطني ، ما القول عنهم سوى انهم يعيشون في افضل بيئة ملائمة لاعدادهم العملي ان على الصعيد الاخلاقي والمعنوي او على الصعيدين الاجتماعي والفني .

على تربية كهذه ان تعمل على ابراز القيادات . اما المدارس والجامعات فهي المنبت الفعلي لهذه القيادات البارزة ومن شأنها ايضا المساهمة في تنمية مواهب النشىء. كما انه يجب الاعتماد على الاختبارات والروائز في عملية اختيار المهن، وذلك على كافة مستويات المجتمع : الاقتصادي، الاداري ، الاجتماعي ، التقني ، الثقافي والسياسي .

وغني عن القول ان عملية اصلاحية في مجال تعليم التاريخ تفرض نفسها ليس فقط لابراز اعمال الشخصيات وتعيين مدى الاحداث بل ايضا لاعلان مساهمة الجماهير الفعلية ودور الافكار في تكوين وتقدم التاريخ .

كما انه يتوجب ايضا تعليم الجغرافية الاقتصادية والثقافية والسياسية على انها « عمل متبادل بين الانسان وبيئته . أما البيئة فنفهمها هنا بمضمونها الاوسع : لبنانية ، عربية ، عالمية ، كونية .

ذلك ان على « الاجتماعي » ان يصهرنا بكل ما ليس هو نحن ، ويعطينا فكرة صحيحة عن مكانتنا في المنطقة . والعالم والكون .

اي باختصار ، على كل ثقافة جديدة أن تكون ذات بعد اجتماعي .

II الانصهار المتبادل بين التعليم والعمل

هناك فكرة ندعو اليها تقضي باعادة التعليم الى احد اطره الطبيعية اي الى « العمل » (والاطاران الاخران هما المجتمع والطبيعة) .

ولقد اقتبسنا هذه الفكرة من النظام التربوي الغاندي حيث تأكدنا عن كثب على اهليتها في المدارس التي قمنا بزيارتها في وردها Wordha وسانتنيكاتان Santinekatan وقد تبنتها الاشتراكية الصينية ، كما ان عددا من البلدان الشيوعية الاخرى تقوم بممارستها وبخاصة المانيا الشرقية .

والمطلوب هو ربط ووصل التربية الاكاديمية والعمل اليدوي والاجتماعي بعضهما ببعض على كافة المستويات والدرجات . واذا كان صحيحا ما يقال ان تكوين اليد كأداة « للقبض » على الاشياء ، كان في أصل نمو الدماغ البشري . فعلينا ان نلاحظ ان قدرة العمل اليدوي التربوية على الصعيد الاخلاقي والاجتماعي والفكري لا تضاهى .

وسوف يترجم هذا التوجيه ويتم خاصة :

— بتعليم زراعي ، وحرفي قروي في مدارس القرى الابتدائية .

— بتعليم مهني وحرفي في مدارس المدن الابتدائية .

— بتعليم مهني واختصاصي وتطبيقي في مدارس الصنائع والفنون والمدارس الليلية .

— بتشجيع اعداد معاونين مهنيين الى جانب المعلمين الصناعيين .

— بتشجيع طلاب التعليم الثانوي والعالي على تعلم حرفة بغية التقريب بينهم وبين مواطنيهم المشتغلين بأيديهم

كما انه يجب تنظيم ادوات تدريبية في المصنع وفي الحقل وفي مجالات العمل الاجتماعي ، ولدى الحرفيين ، وحمل النشىء على المساهمة في اعمال عديدة كبناء السدود والطرقات وبيوت الشعب ... ويجب تتويج هذه الاعمال التطبيقية اليدوية بمرحلة من الخدمة الاجتماعية الاجبارية مدتها سنة ..

اذن فعلى التعليم الاكاديمي ان يتساوى مع التعليم والاعداد اليدوي العملي . وبهذا الثمن فقط يمكن اعادة الانسان الى ما يجسده فعلا ، خاصة وان هذه النظرة الفلسفية التي تقول بتفوق وأفضلية الذكاء على المشاعر والارادة هي ، من بين كل الامراض أكثرها افسادا ودفعا للانحلال .

III اعادة التعليم الى اطار الطبيعة

أكدنا في ما سبق على اهمية اعادة التعليم الى الاطار الاجتماعي الملائم ، وعلى اهمية ادراجه في ميدان النشاط الانساني ، وفي ميدان العمل .

اما اطار الطبيعة فلا يقل أهمية في مجال تربية النشىء . ذلك ان البيئة السائلة المالحة الداخلية التي تروي خلايانا وأعصابنا هي كتلة من الموج البحري المفصول عن المحيط بعد ان كان في الاصل جزءاً منه ، على حد قول لايسلي «Leisly»

ان المياه الصافية ، والهواء والشمس ، والدفء ، والعشب والسماء (الزرقاء او المكللة بالنجوم) هي منشطات للجسد وللعقل في آن معا . والحضارات والاعراق (النسل) تدخل مرحلة الانحلال في كل مرة تبتعد وتنفصل عن الطبيعة المربية ، من الارض التي هي مكون جسدنا بواسطة التمثيل النباتي .

ويبدو بالتالي من الضروري ابعاد المدارس والمعاهد والجامعات عن المدن التي أصبح شبابنا في الغرب والولايات المتحدة **يكرهها ويهرب منها .**

يجب ايضا ترتيب حدائق وروضات واسعة ، كما يجب اعطاء بعض الدروس في الهواء الطلق ومن المفترض ايضا غرس روح الصداقة والحماية والرعاية بين النشىء لاعادة هذا النشىء الى نفسه وابعاد روح العنف ضد الاشياء الجامدة وكائنات العالم الحي ، عنه ، وهي روح نأسف هنا في لبنان وفي بلدان الشرق لانتشارها ولتحولها تحت تأثير الكبت الى عقدة تخريب وتدمير .

كم كانت الاشياء مختلفة ، لو كان عدد العصافير والحيوانات البرية اكثر عددا في لبنان ، ولو كان لهذه الحيوانات ان تعيش طليقة في سلام ، ولو كنا نحبها ، لو كانت الاشياء كذلك لكان القانون نفسه (**قانون الدولة وقانون الاخلاق**) **اكثر احتراما .**

وغني عن التنبيه طبعا الى اهمية نمط البناء وطبيعة المؤسسات التربوية . ذلك أن جمال او قباحة البيئة نفسها من شأنها التأثير على لا وعينا واثارة ردات فعلنا .

والعين تحب النظر الى الاقواس المستديرة ، الى الدوائر والاشكال الكروية والانحناءات على انواعها . اما الخطوط المستقيمة فليست قائمة بحد ذاتها امام حقل الرؤية العادية ، وهي اذا صح القول نوع من البربرية المفروضة على العين لاسباب عملية تتعلق بالكسب المادي فقط .

وكم كانت حياة المدن نفسها مختلفة وجذابة لو كان كل بناء قائم مبنيا بمراعاة الاسلوب الطبيعي العفوي ، اي بالاكثار من الاقواس والاعمدة واسهم القبب ، والنوافذ والابواب المبنية حسب « **المقياس الذهبي** » وبالاخذ ايضا بالاسلوب اليوناني — الروماني او الشرقي ، او الايراني — العربي .

IV تكوين الخلق

هناك ميل في انظمتنا التربوية الحديثة الى اهمال موضوع تكوين الخلق . كما هناك ميل الى التبسيط والى عدم الاخذ الا بالجوانب العملية والنفعية والسطحية للتعليم وهو توجه يريده لتربيتنا عدد من « انصار العلمية » وجمهور من التلامذة والطلاب .

برأينا انه لا يمكن اهمال او الغاء المواد الانسانية والفلسفة .. ولنا عودة الى هذا الموضوع .

لنؤكد اولا هنا اهمية تكوين خلق النشىء على امتداد المراحل التعليمية . والمطلوب بالطبع هو اللجوء الى وسائل علم النفس الحديثة ، الفردية والجماعية وتطبيق قوانين علم الخلق والانماط البدنية وحتى علم الاستدلال الخطي ؛ وهي وسائل اخذت طابعا علميا مع ان علميتها قديمة قدم

الزمن بعد ان كانت هذه العلوم معروفة من المصريين القدامى والايرانيين واليونانيين والعرب .

ورغم جرأة المقولة لا يمكننا هنا تغييب دور الغذاء في تربية النشىء على اختلاف اعماره وهو دور بدأ مئات الآلاف من الشباب في الغرب واميركا بنشره بعد ان اوجزوه بهذا القول : « انت جسديا ، وفكريا ، واخلاقيا ... انت ما تأكل ... قل لي ماذا تأكل وسأقول لك من أنت » .. ويبدو ايضا ان مثل شعوب الهونزا Hunza وغواراي كانال Guaraï Canal بدأ بالانتشار .

وسوف نقتصر كلامنا هذا في اطار هذه المحاضرة القصيرة على المطالبة بايجاد امتحان في الخلق والاخلاق يندرج في سلسلة المواد التعليمية في لبنان كما نطالب ان تكون علامة هذه المواد بمعدل ثلث المعدل الاجمالي المطلوب تحصيله .

برأينا ان من مستلزمات تكوين الخلق ايضا ضرورة معرفة بعض الوسائل النفسية — الجسدية المتطورة والمنتشرة في الشرق الاقصى اكثر من اي منطقة اخرى (الهند ، الصين ، اليابان) وهي وسائل تتخطى بكثير علم النفس القائم في الغرب .

V تكوين الانسان

على الاطر التعليمية أن تهدف الى تكوين الانسان في ذاتنا . كان يقال في الماضي : الحياة أولا والفلسفة ثانيا . ونحن نقول : « حتى نتمكن من عيش حياة فاضلة علينا اولا ان نمارس الفلسفة اي ان نكون قد دفعنا نمو الاداة الفكرية

والتقنية والمعنوية التيتسمح لنا ان نعيش ، أن نكـون قد
دفعنا نموها الى الامام .

ان تهذيب الخلق يتطلب تكوين الكائن الانساني بكامله .
بعد تحريره من عقده ومن كل شيء يحده (تقليدي أو مصطنع)
وحتى في النهاية تحريره مـن تطابقـه الوهمي مع الذهن
والجسد والحواس . ويجب علينا في سبيل بلوغ هذا الهدف
التذكير بهذه الحقائق الشبه كلاسيكية المفروض احترامها .

١) لسنا ، على المستوى النفساني وحتى على المستوى
الجسدي بحسب بعض الاكتشافات الحديثة ، سوى «ذاكرة»
تمتص كل المساهمات المعرفية ، الحواسية منها والفكرية .
كما تمتص مضمون المشاعر بكامله لتعود وتخرجها الى الفعل
مجـددا .

واذا أردنا ان نتساءل ما هو (الانا) ، اي شخصية
الانسان المزروعة في معظم الايان على هذا (الانا) ، نجيب :
هي ذاكرة .

نحن نسجل في حالات الجمود القابلة التأثير على كل ما
من شأنه اثارتنا ، وكل ما يصلنا بواسطة حواسنا التي هي
منفذنا الوحيد على الكائنات والاشياء . وهذه الذاكرة تغذي
باستمرار اللاوعي الذي يحدد لنا في معظم الاحيان توجهاتنا
وافعالنا ، كما يشرف على ردات فعلنا ، ويعطي تأثيرتنـا
الوانها . وعلى هذا الصعيد كل شيء سببية . وبما انه لا
يمكن ان يكون في « الوعاء » الا ما وضع داخله من مضمون ،
فيمكن بالتالي اقفال الدورة : صـورة حسية ، افكـار ،
مشاعر ، ارادات ، افعال . هذا هو الكرما Karma ولا

مفر منه . واذا اردنا في الحقيقة دفع التحليل الى اعمـاق
ابعد فسوف نرى أن كل الاشياء المدركة ليست ، على حـد
قول برترانـد رسل Bertrand Russel وديراك Dirac
والعديد من علماء الفيزياء والنفس ، سوى ادراك ذهن .
اما حرية الاختيار فلا تبرز الا عندما نصل الى مستوى أعمق
في الكائن وهو مستوى يتخطى ما هو ذهني . يجب ان ننتبه
الى كل ما يعرف بواسطة العينين والاذنـين ، والاعصاب
الشمية واللمس ، وذلك لان هذه الحواس هي بمثابة الممر
الذي يسلكه نحو الداخل والذاكرة الامتصاصيـة ، كل ما
يكون مادة شخصنا وهو ما يسمى بحبكة الذات .

علينا أن نبدأ من هنا ، اي من تهذيب الذاكرة ، ومن
هذا المنطلق يمكننا فهم أهمية البيئة ، واهمية بيئة صادقة ،
نزيهة ، صافية خاصة على صعيـد المدرسة ، والسينما ،
والتلفزة والاذاعة ، والمسرح ، والنشرات الدورية والصحف
... ونسمع البعض يقول : وماذا عن الحرية في كل هذا ؟
اما نحن، فلا نفهم حرية الا تلكالتي تسعى الىتقريبنا من حالة
الحرية النفسانية والاخلاقية ، وهي حالة تفسح المجال في
معظم الاحيان أمام ممارستنا لحرية الاختيار نفسها .

لا يحق لاحد عندمـا يكـون مصابـا « بالتسمم »
(بالفساد) أن « يعدي » (يفسد) الاخرين . فيبدو مـن
الضروري اذا اقامة نظام مراقبة عقلاني ملائم يسمح بغربلةكل
ما يأتي من الخارج كما هو من الضروري استخدام «الفنون»
وخاصة الاذاعة والسينما والمسرح والموسيقى والاعـلام
لتهذيب النشىء والشعب بصورة عامة (الميثاق ص ٢١ ،
١٩٤٩) .

وفي هذه الزاوية علينا الا نقلل من اهمية الثقافة الشعبية مع أن هناك ضرورة لاعطاء الموسيقى موقعا خاصا في هذا المجال .

٢) ضرورة التفرقة المنهجية ، (وهي كلاسيكية) بين القلب والعقل ، الى جانب تزاوجهما ونموهما المنسجم . وهذا الفصل يبدو ضروريا اذا ما طمحنا للوصول الى مستوى راق في المعرفة وفي تهذيب الانسان . على أنه لا يجوز الفصل وبأي شكل بين العقل والقلب ، ذلك انه « اذا كان العقل اداة المعرفة فالقلب هو اداة الفهم » ، على حد قول عاقل كبير .

وفي هذا الاطار يبدو تعليم المواد المتعلقة بالآداب الانسانية والادب والفنون هدفا جوهريا ، وذلك على امتداد المراحل التربوية .

اما تهذيب القلب فلا يمكن أن ينمو ويتطور فعلا الا بواسطة دراسة روائع الادب العالمي والتعرف الى جوهر التحف الفنية العالمية ، مما يستلزم بالتالي فنا تعليميا حقيقيا. وفي هذا السياق تبرز ضرورة تنقية الكتب الادبية من كل هذا الكلام عن الادبيات الصغيرة « المحلية » ، الوطنية التي تشكل عبئا على برامج تعليم الادب الفرنسي او العربي .

وفي هذا المجال يبدو موضوع اختيار الاساتذة الملائمين موضوعا بالغ الاهمية .

اذن للفنون والموسيقى دور رائد في تهذيب القلب والاخلاق الخاصة والعامة خاصة اذا ما عرفنا ان حسن الجمال يرفع ويبعث الوئام والبهجة .

ولكن ، هل في حياة الانسان شيء اكثر جوهرية من

التعلق بالجمال والبهجة ؟ أليس مصدر آلام العالم الحديث فقدان العلاقة مع الينابيع السرمدية للجمال والشكل والصوت لاجل الركض وراء وسائل الراحة أو البحث عما هو عملي زعما ، ومن مختلف منتوجات الاستهلاك ؟

٣) لا بد لعملية تهذيب العقل العادي ان تقوم على اصلاح اساليب مناهج تعليم الفلسفة وتعميق هذا النوع من التعليم .

يجب اعادة الفلاسفة والحكماء اليونانيين الكبار الى المرتبة الاولى ومنهم خاصة فيتاغور ، هرقليطس ، بارمانيدس ، امبيدوتلس ، سقراط ، افلاطون وأفلوطين ، اي بمعنى اخر كل الذين عملوا على تكوين وبعث جدلية الاضداد . ذلك ان هذه الجدلية هي الفلسفية التحليلية والتفسيرية ، القيمة والملائمة فعلا للظواهر والحقائق اي هي بالتالي الفلسفة الحقيقية . والعلم الحديث يتطابق في كافة نتائجه مع كل الاستنتاجات التي أعلنها هؤلاء العقلاء منذ زمن بعيد .

اما في ما يتعلق بالجدليين المعاصرين فعلينا التركيز على اخوان الصفا ، وكانت وهيغل ولايبنتيز ويونغ وبرغسون وتايلار دي شاردان وماركس وجلال الدين الرومي والسهروردي . تكلمنا عن « السهروردي » وعن معلم المولويين وهو احد قادة الفكر الصوفي وبرأينا ايضا ان اي تعليم فلسفي لا يمكن الا ان يشمل أبا يزيد البسطامي والحلاج وابن عربي وأبو العلاء .

أن ايماننا قوي بأن العملية الجدلية التي يقوم بها الفكر اليوناني والشرقي والحديث هي الوحيدة التي تمكن من اعطاء

الطالب ومستقبلا الانسان المكتمل المقومات ، أداة فعلية ، صلبة للادراك والفهم . كما ان لهذه الجدلية فعلها في تعليم الطالب حقائق العملية القائلة ان كل الظواهر على انواعها : (حسية ، ملموسة ، اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية أو نفسانية) تنمو وتتطور ، لان كل شيء توتر ، وكل شيء ظواهر بحتة ولا وجود الا للحركة . على انني لا اقول الحركة هي وجود لان هذا الموضوع يتعلق بمرتبة ومستوى اخر من النقاش .

٤) ضرورة تهذيب العقل الاعلى ، والادراك الرفيع . وهو المبدأ السقراطي الاهم . ويجب ان تأتي هذه العملية التهذيبية لتكلل نظام التربية المتكامل ، الفلسفي والاخلاقي والجمالي .

وللعقل الاعلى قدرة على الوصول الى الحقائق النهائية، والى « الحقيقة » التي يعينها الحكماء القدامى وبعض الفلاسفة المعاصرين في تعليمهم الجدلي .

اما ثنائية الاضداد الجدلية فهي تقودنا بصورة عفوية وعلى الفور على اعتماد طريق اللاثنائية في البحث عن «المطلق» . هذا لان لثنائية الجدلية قدرة على الترفع، وفي كل لحظة ، بفضل هذه العملية التثقيفية غير الثنائية التي تمكن من نبوغ الحكمة . وذلك كما كان يقول هرقليطس ، « لان بالنسبة للالة كل شيء جمال وفضيلة وعدل ، اما مفاهيم الظلم والحق فهي من صنع الانسان » (١) .

(١) ثلاثة معاصرين « اين باتيستيني » ص ٣٨ . ن.ر.ف. غاليمار.

« هناك حكمة واحدة لا وجود لسواها : معرفة الفكر المسير لكل الاشياء في كل شيء » . « زيجات الكل واللاكل، القريب والمفصل ، الانسجام ومضاده . من كل شيء يولد « الواحد » ومن الواحد يولد كل شيء » (٢) .

تجدر الاشارة الى ان الحزب التقدمي الاشتراكي يوصي بتدريس التعليم الديني في كافة المدارس العلمانية وذلك لانه اذا كان الدين يمثل حقيقة ما فعلى هذه الحقيقة ان تطرح امام التلميذ او الطالب ليقبلها او يحدد موقفا منها .

لكننا نعتقد ان الروحانية الحية تتفتح بواسطة الاختبار الحي والمرئي والمتجرد — أي روحانية متصوفي المعرفة — وليس بالتعاليم العقائدية الجامدة المجردة .

ولقد أوصينا باعتماد تدريس ثلاثة او اربعة من الصوفيين الحقيقيين لان الصوفي الحقيقي هو دائما جدلي ممتاز ونحن نعني هنا بالطبع جدلية الاضداد التي امتدت من فلاسفة ما قبل المرحلة السقراطية الى هيغل وماركس .

ومن الممكن أن يقال لنا : « ان برنامجكم على صعيد الآداب الانسانية والفلسفة والفنون وحتى الادب لا يعطي الاهمية الكافية للامور المنفعية الناجمة عن عصرنا هذا .

ونحن نجيب وبكل ايمان وقناعة :

اولا — ان هذه الفلسفة (بمفهومنا لمتغيراتها) وهذا الادب وهذه الفنون كلها ، اذا ما عالجناها من زاوية مضمونها الجوهري ، هي في الحقيقة مساهمة فعالة لشحذ العقل وتأهيله للدراسة العلمية النظرية والتطبيقية .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

ثانيا — ان هدفنا هو تكوين انسان وليس ايجاد علبة لتوضيب بطاقات للمعلومات او اعداد آلات حسابية حية لان قيمة الانسان تفوق بكثير كل ما يقوم بانتاجه .

VI التربية لكافة اعمار الحياة

ان احدى خصائص الفكرة التقدمية الاشتراكية تكمن في اعتبار الانسان تلميذاً دائما . ان الفرد في كافة مراحل عمره (أكان صبيا ، او مراهقا او مسنا) هو كائن دائم التحول . فالذهن والجسد يتحدان باستمرار كمياه النهر اذ ان السباحة في المياه نفسها مرتين عملية مستحيلة .

فعلى الدولة اذن وعلى الهيئات الاجتماعية على انواعها العمل بدقة على منح المواطنين « الغذاء الثقافي » الافضل .

ولا يجوز التساهل امام هذا الاضطراب المطلق للقيم . وهذا العنف في دك ما يشكل جوهر الحياة الاجتماعية والبشرية بحجة احترام الحرية المطلقة الكاملة .

وفي اطار هذه الحرية نفسها «استخدام الفنون والاعلام والاذاعة والتلفزة والسينما والمسرح والموسيقى لتوجيه الشعب وتهذيبه » (الميثاق ص ٢١) .

كما ان المطلوب ايضا « تثقيف الشعب سياسيا — واجتماعيا بغية التوصل الى وضع ديموقراطي بفضل تنمية رابطة discipline في المواطن تكون محض اختيارية (الميثاق ص ١٤) » .

وسوف تكون تظاهرات التقاليد الشعبية المختلفة والاساطير والفولكلور مناسبات اخرى للمساهمة في هذه العملية التهذيبية — التربوية .

وبكلمة يجب اعادة البيئة الى هذا الجو من العافية والصحة النفسانية والمعنوية الذي يحتاج اليل كل كائن لتنمية عمله والتعبير عن كماله .

VII الغاء ارتهان الانسان

وهنا نصل في خاتمة كلامنا الى احد اعمق المفاهيم التي تطرحها الاشتراكية والتي تشكل احدى اكبر المساهمات التي تقدمت بها الماركسية في مجال دراسة الانسان الا وهي : ارتهان الانسان (اغترابه) بفعل الرأسمالية ، والتاريخ والمجتمع ، والتقنية التطبيقية ، والدين العقائدي ، والعائلة ، والميتافيزيقيا ، والفن والثقافة السائدين . وبفعل الايمان باللاوعي ، وهذه الفكرة تقودنا الى المقولة الاشتراكية الثانية وهي طموح الاشتراكية الى تحدي هذا الارتهان والغائه لاعادة الاسان الى حريته كاملة .

والموضوع له من الاهمية ما لا يفسح المجال لنا بتحليله ونقاشه بصورة وافية . كما ان مضمون هذا الاتجاه الآيل الى الغاء الارتهان يتخطى بكثير الاشكال والقوالب التي اقيمت مع بداية تحقيق الثورات الماركسية الصيغ الاولية لثوراتها .

هذه الفكرة مقتبسة من تعاليم الحكمة القديمة ، الشرقية والحديثة . اما السؤال المطروح فهو : هل يمكن

تطبيقها على مستوى البشرية ككل ام انها ستقتصر على اقلية مختارة ؟

نحن نعتقد ان وجود حالة محدودة من التحرر من الارتهان من شأنه التأثير على الاوضاع الاجتماعية برمتها .

ان مسألة الغاء ارتهان الانسان تجاه بيئته الداخلية او الخارجية هي مسألة راهنة خاصة في ما يتعلق بالشباب ، اذ تقع على رأس قائمة مطالبهم الاساسية ، ولقد كانت مسألة الارتهان ، والغائها موضع اهتمام البشرية على امتداد مراحل تطورها لكنها لم تتخذ هذا الطابع الحاد قبل ايامنا هذه . وذلك يعود الى ان الانسان كان يجد في الفترات التاريخية السابقة منافذ معينة كان يعوض عبرها عن استحالة الغائها ، كأن يعيش مثلا حياة بسيطة وزاهدة (وكانت الجماهير لا تزال آنذاك على هذه الحال) او يدخل الجمعيات الكهنوتية الدينية او الدنيوية ، او يحاول على وجه الاخص « التعرف على الحكمة ودراستها » .

الا ان الهدف الذي رسمه ماركس وهو العمل على اعادة كامل حرية تصرف الانسان بنفسه كان يدل على مدى تأثره واعجابه بالحكمة اليونانية التي كان اثنان من ابرز ممثليها ، وهما هرقليطس وديمقريطس ، معلميه وموجهيه المفضلين . وكان يقول ماركس عن الاول انه أكبر فيلسوف في كل زمان ومكان ، وهذا يدل ايضا ، فيما يدل على حرص ماركس على « الحرية » (بالمعنى المطلق للكلمة) .

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا هو التالي : « هل ان الوسائل التي نادى ماركس باللجوء اليها بهدف الغاء الارتهان والوصول الى الحرية ، اي عنف الصراع الطبقي

وديكتاتورية البروليتاريا ، هل هذه الوسائل تسمح بالمحافظة على نهج الوصول الى الحرية ، وتمكن من الابقاء على روح الحرية نفسها ومن تحقيقها على وجه الكمال ؟

ولربما لم تكن بعد قد انكشفت آنذاك فكرة الترابط المتبادل والتطابق الوجودي بين الوسائل والاهداف على الوجه الذي حدده وعرف عنه المهاتما غاندي امام العالم عندما عرض لتعاليم الكارنا الهندوسي Karna Hindou القديمة العهود .

ولربما هناك ايضا في تفسير ذلك نوع من التأرجح بين وجهين لماركس . الاول هو وجه ماركس ما قبل ١٨٥٠ . وهو يعبر عن شخصية مطمئنة الى حتمية قانون تغيير كل الاشياء الى نقيضها الظاهري ، والى تحويل الرأسمالية الى اشتراكية وذلك بواسطة النضال السلمي ، وبفضل وعي متنام ، يزداد حدة وانتشارا . اما الوجه الثاني فهو ماركس ما بعد ١٨٥٠ المعبر عن رجل مشغول البال ، واكثر انكبابا على مآسي زمنه التي لا تطاق او تحتمل ان في المصانع او الارياف والتي نال هو نفسه قسطه خاصة منها في انكلترا . وازاء هذا الوضع نرى امامنا « ماركس » اكثر ديناميكية في احسانه وصدقه ، واكثر تأثرا وتعبئة وحماسا في نشاطه التبشيري ، على غرار بعض هؤلاء من رجال الدين ، كهنة ومطارنة في اميركا اللاتينية الذين يدعون علنا « لاعتماد الصراع الطبقي والعنف » اي نرى وجه ماركس الداعي الى « العنف المحرر » مهما بلغ الثمن وكانت النتائج .

علينا ان نحفظ من هذا العرض السريع ما يلي :

١) ان هذا المفهوم المتعلق بالحرية الكاملة الممنوحة

مجدداً للفرد البشري ، او بالاحرى المكتشفة مجدداً من قبله . يعيد الى اذهاننا ما هو اساسي في تعاليم الحكمة الشرقية واليونانية . والجوهر الاساسي لهذه الحكمة هو : « تحرر الانسان وتحققه في اطار هذه الحرية نفسها وبتخطي كل ارتهـان .

وبالطبع هذا الطموح يعود الى نظام تقييمي مختلف . لا شك ، او ربما لم يكن ماركس حكيما ، الا انه استخدم بكثافة الاداة الجدلية الصافية ، المحض ــ جدلية الاضداد وتجاوز هذه الاخيرة ــ التي لجأ اليها العقلاء اليونانيون وعقلاء كل البلدان لتفسير العالم ولرفع مستوى امكانيات روحهم بغية الوصول الى الحكمة، ولتنزيه العالم عن الظواهر المتحركة التي يكشفها تموج الاضداد المستمر ليدفعنا ، من قمة وعينا تجاه المطلق ...

اما الوجـود فلا يتكشف على مسـتوى المظاهر الا بواسطة الحركة ، او « بالتوتر » اذا ما رجعنا الى مفاهيم هرقليطس وفي اعقابه كل علماء العالم الحديث .

ان حكمه وأمثاله لها من النقاوة والصحة ما يدفعني الى عدم التردد في استعراضها : « الحياة والموت هما الشيء نفسه ، كاليقظة والنوم والشباب والشيخوخة . انهـا تحولات متبادلة » .

لان « الكل يتحول الى نار (اي حسب هايزنبرغ الى طاقة) والنار تتحول الى كل شيء كالبضائع عندما تتحول الى ذهب والذهب عندما يتحول الى بضائع . »

« ما يتعارض الى الابد يرسو ويتكرس » .

« الصراع (اي صراع الاضداد) هو أب وملك كل

شيء . فهو الذي خلق الآلهة والبشر . لكن « الانسجـام الباطني (اي حرية الكائن الكلية) يتفوق علـى الانسجام الظـاهري » .

لان « مقام الانسان هو مقام الالهة » .

« الفكر هو الفضيلة المثلى . والحكمة الحقيقية هي الكلام مع الاستماع الى الطبيعة » .

وربما من الممكن اكتشاف ماركس جديد وماركسـية جديدة وصادقة لو كان ماركس والماركسية موضوع معالجة ودرس من هذه الزاوية التي لم يتوصل ماركس اليهـا او ربما لم يشأ الوصول اليها والتمسك بها مع انه لم يرفض تأثيراتها على فكره والتي جعل منها الهدف الفعلـي لاية اشتراكيـة .

٢) اليس ماركس بمثابة مبشر ؟ أوليست هذه الافكار التحررية المتعلقة بالغاء كل ارتهان ، محور اتجاهات بعض الشبيبة في البلدان الفائقة التطور والنمو الصناعي ؟ صحيح ان هؤلاء الشبان لا يدركون بعد لماذا يتحمسون ويتحركون ولا يعرفون بعد الى ماذا يجب ان يطمحوا بصورة ايجابية على صعيد الدولة والمؤسسات والعلاقات الانسانية والمجتمع الوطني والدولي . لكن من المؤكد ان ما يدفعهم هو الدعوة الى الحرية ، وان نفسا من اللاوعي يجذبهم نحـو التحرر الكـامل .

٣) ولكن ليس كل تحرر تحررا فعليا ، وبالاحرى لا يتم هذا التحرر الفعلي الا على مستوى يفوق الجسد والحواس والذهن . فيجب الاستماع الى « صوت » الاختبار القديم

العهد المتراكم على امتداد القرون المتتالية ، **وفي العـــلاقات** الانسانية ، وعلاقات الانسان مع الغير ومع نفسه ثوابت في القيم يجب المحافظة عليها وتنميتها. لا يمكن «لعدم» (١) من القيم الاجتماعية والاخلاقية المدمرة ان يولد اي قيمة فعلية . وفي حال غياب هذه المحافظة المشروعة على القيم تبرز مخاطر المغامرات المدمرة وكل الانحرافات وحالات الانحــلال التي نشهدها بعض الاحيان .

— يجب فهم المساهمة الفعلية للفكر الاشتراكي في مجال التعليم في لبنان ، وفي كل تعليم من ضمن هذه الأطر التي حددتها باختصار . اما هدف المفهوم الاشتراكي للتعليم فهو اعادة الانسان الى وحدته مع نفسه وبالتالي مع الكون ، والذي تم فصله عنه لفترات طويلة .

ونورد في ما يلي البرنامج المفصل للمفهوم الاشتراكي في مجال التعليم :

VIII الحياة العقليـــة

اعلان اهمية المعرفة وضمان احترام حقوقها وتعزيز الحياة العقلية وايجاد وضع يضمن اقصى تفتحها فيما يهم الفرد والجماعة والانسانية .

١) اعتبار الفكر قيمة بحـــد ذاته وموضوعا لكرامة الانسان ومرتكزا لكل نشاط بشري ، واعتبار المعرفة مقياسا لكل عمل انساني ومصدرا للحرية والغبطة :

— اطلاق حرية الفكر في البحث عن الحقيقة واكتناهها .

— اعتبار المعرفة شفاعية بطبيعتها فلا حاجز في سبيل نشر الفـــكر .

(١) Un neant.

— اعلان المعرفة حقا للفرد وواجبا عليه . وبالتالي تحقيق الاهداف التالية :

— تأمين التعليم الزاميا ومجانيا في المرحلتين الابتدائيه والثانوية ، ومجانية التعليم العالي .

— انشاء المدارس الليلية للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي والمهني .

— توجيه التعليم الى نشر الحقيقة ونواميس الاخلاق الطبيعية باستهداف تحرر الفكر والنفـــع الاجتماعي تنشئه العقل بحيث يستشرق في جميع مراحل الحياة تحقيق الانسان الكامل فرداً ومواطنا ، تنشئه تنصهر فيها قوى الذكاء والحكم والاحساس والخلق في ترحيب منسجم متزن ، ويتدرب فيها الجسم ليصبح آلة عمل مثلى .

— جعل المعرفة كلا تأليفيا متحققـــا في الشخص ، وبالتالـــي :

أ — وضع نظام للمدرسين يعين اصول المهنة .

— اعتماد تدابـــير ترمي الى تنشئة المعلمين تنشئة خلقية وفكرية متينة ، خاصة بانشاء دار معلمين عليا تكون معقلا لرسل الفكر .

ب) **تربية الحياة العقلية بتدرج موافق يقوم على :**

— الشعور بالاستفادة فرديا وقوميا .

— الشعور بالاعتزاز وبالمساهمة في التقدم العالمي .

— **في التعليم الابتدائي** ، تركيز المعرفة على حب الحقيقة وتحبيب المناقب وتذوق الجمال .

— **في التعليم الثانوي** ، تركيز المعرفة على حب الحقيقة وعلى الرضى الناجم عن تجليها التدريجي في الذهن .

— **في التعليم العالي** ، باعتبار الغبطة بالتفتح العقلي والاعتزاز بالمساهمة في الحضارة العالمية اساسا للحياة العقلية ولتقوية حرمة العلوم المنزهة عن النفع .

ج) **جعل التربية قائمة :**

على تفتيح المواهب لا على تكديس المعلومات وفاقا لمبدأ « رأس منتظم خير من رأس مشحون » وذلك يتم :

في التعليم الابتدائي :

— بايقاظ وعي الشخصية وروح المسؤولية .

— بتعريف الولد تدريجيا الى التراث البشري .

— بانشاء وتعميم دور الحضانة للاطفال .

في التعليم الثانوي :

— بتسليح الطالب بالذهن وتقوية حرمته عنده وحفزه الى التعمق بأسبابه وتدريجه باكتساب المعارف التي تؤلف زبدة التراث العقلي والروحي كي يصبح آلة اخذ وابداع معا .

— بتنمية ذوقه باستشارة كوامن أعجابه وحبه للحقيقة .

— باختتام هذه الدراسة بسنة حيوية غنية تصل العلم بالحياة وتحظى بدورها على الملاءمة التامة بشكل مزاج مشترك .

في التعليم العالي :

— بتقوية الذهن جملة بثقافة عامة غنية وبتخصيصه بغية اقصى الافادة منه ، وبتدريبه على وضع كل فرع من فروع العلم موضعه كجزء من البناية الفكرية الواحدة . تدريبا يكون بدونه التخصص آفة .

— بانشاء جامعة نموذجية وبتأسيس وتشجيع معاهد عليا خاصة مستقلة للفلسفة والعلوم والفنون وتزويدها بمستلزمات العمل .

للفلسفة : مجالات ومختبرات لعلم النفس التجريبي .

للعلوم : متاحف ومجموعات ومختبرات ومراكز بحث واعتماد مراسلين في الخارج . مؤسسات للبحث والتنقيب العلمي لتمكين المتفوقين والمتخصصين بمناحي العلوم المختلفة من اظهار الكوامن خدمة للمجتمع والحضارة والعلم .

في الفنون : متاحف وقاعات عرض دائمة ودور للتمثيل واوبرا واستديو للصناعة السينمائية .

د) جعل تربية الشخصية المنهجية وتوازن قوى النفس نتيجة للعمل الواعي المسؤول ، وبالتالي اعتماد نظام في التربية قائم على :

— تنمية المبادرة وروح المسؤولية في الولد بتوفير فرص له تجعله يتصرف حرا واعيا ويتحمل المسؤوليات .

— تنمية حرمة الحرية والكرامة البشرية كمصدرين للمسؤولية .

— السيطرة على الذات وضرورة خضوعها بكليتها التأليفية لاتزان سليم .

هـ) اعتماد مبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » .

وبالتالي تنمية قوى الروح والجسم معا .

— بتوضيح حرمة الجسد وترفيع القوى الحية وتحويلها الى قوى نفسية واجتماعية خلاقة وبناءة .

— بتعويد الولد ضروب الاعتناء بالجسد .

— بجعل علم الصحة والتربية البدنية مادتي درس وامتحان .

— بتحبيب النشىء بالرياضة الطبيعية بما يؤمن له تنمية منسجمة للاعضاء وينحت خلقه ويبعث فيه البهجة .

— باعادة الرياضة الى جو الطبيعة والى ما فيه البهجة . وتنمية وظائف الجسد القابلة للتكيف بغية تطهيرها وزيادة نموها .

— بالتشديد على العلاقة الوثيقة القائمة بين الرياضة والبهجة .

— بايضاح التفاعل بين الجسد والقوى النفسية بحيث يفيد الواحد من تقدم الاخر .

— بالتشديد على الافادة فرديا واجتماعيا من نمو الروح الخلقي الرياضي .

— بابراز الناحية الجمالية في الرياضة .

— بجعل مواسم الرياضة موضوع اعتزاز للجماعة .

— باجبار كل شاب وشابة على الانتماء الى ناد او اكثر .

— انشاء اندية رياضية بجميع فروعها ووضع مناهج خاصة للاندية .

٢) اعتماد المعرفة خميرة اجتماعية وقوة قومية :

أ) اعتبار الشباب سن البطولة اي المرحلة التي يمكن ان تستثار فيها اهمية الانسان فردا وجماعة . وتعبئة هذه القوة نظاميا والافادة منها منهجيا بالوسائل التالية :

— تنظيم يكفل اقصى التفتح لفضائل الشباب .

— ترسيخ الشباب في المحبة وقيم الفروسية وروح الاستطلاع والاقبال على العمل .

— جعل الشباب قدوة للشعب حيال محن الامة والحياة وبالتالي طليعة كل مجهود يطلب من الفرد والجماعة .

— التشديد على ضرورة التعاون والمسؤولية الاجتماعيين .

— استخدام الفنون وخاصة الاذاعة والسينما والمسرح والموسيقى في تهذيب الشعب وتنمية شعوره الفني .

ب) تقوية الروح الاجتماعية في الشباب فيكون في كل قرية وحي بيت عام يلتقي فيه الشعب على مختلف اسباب الثقافة وعلى التعرف بالواجبات الاجتماعية والتشديد على ضرورة العمل المباشر في مختلف مراحل التعليم الالزامي في

الجزء الخاص بالمعارف العملية من التعليم بغية جعل الفرد اشد فعالية من اجل خيره وخير المجتمع ويتم ذلك خاصة :

— بتعليم زراعي وحرفي قروي في مدارس القرى الابتدائية .

— بتعليم مهني وحرفي في مدارس المدن الابتدائية .

— بتعليم مهني واختصاصي وتطبيقي في مدارس الصنائع والفنون وفي غيرها من المعاهد المهنية التي يجب ان تخرج للانتاج الوطني رؤساء ورش .

— بتشجيع اعداد معاونين مهنيين الى جانب المعلمين الصناعيين .

— بتشجيع طلاب التعليم الثانوي والعالي على تعلم حرفة بغية التقريب بينهم وبين مواطنيهم المشتغلين بأيديهم .

— بجعل التثقيف المدني مادة امتحان ، وتدريس مبادىء في حقوق وواجبات الانسان والمواطن الاجتماعيين والذوق العام .

— بتدريس تاريخ الوطن كقيمة غير معزولة عن تاريخ التقدم .

— بتدريس جغرافية الوطن ، من حيث هي وقوف على قيم وامكانيات يجب ان توجه النشاط في حقول الفكر والتحقيق والاقتصاد .

ج) استثارة وتنشيط اقصى التفتح الفكري :

— باثارة وتوضيح حالة العلم ومشاكله في اذهان

الجمهور بغية جعل الشعب واقفا عليه ، ولو عن بعد ، وبالتالي منفتحا ومقدرا لاهل البحث النظري .

— بايفاد بعثات للتخصص بالعلوم والفنون والانتفاع الاكيد من رجالها بواسطة انشاء مؤسسات لجميع أنواع نشاطها .

— بانشاء جوائز واقامة معارض محلية وعالمية للنتاج العقلي .

— بتوثيق الروابط بين رجال الفكر والعلم في الوطن وزملائهم في العالم ولا سيما باشتراكهم في مؤسسات البحث والثقافة الخاصة والدولية والدعوة لمؤتمرات علمية وثقافية ودولية .

الكسليك — ١٩٧١

الطـــالب والامـــــة

أيها السيدات والســـــادة ،

لقد ترددنا طويلا في معالجة هذه المشكلة ، ويعود سبب ترددنا الى اختلاف وتقلب مضمون القضية المطروحة مع اختلاف الازمنة والمجتمعات ومراحل تطور الجماعة والحضارة .

من المؤكد انه كان للعصور القديمة والقرون الوسطى وبخاصة كافة « المجتمعات والحضارات الزراعية » ، ميزة معينة هي هذه المكانة العالية التي كانت تلك المجتمعات تمنحها للاولاد البكر ، لما هو قديم ومسن ، وللسلطان المعنوي والفعلي الذي كان يتمتع به كبير القوم سنا ، لذوي الخبرة وذوي « الشعر الابيض » .

لقد كانت هذه الاشكال الخاصة بالتجمع البشري كافة متشربة لما يمكن تسميته « بمبدأ الاكرام » أو « هيبة الاكرام » وذلك بدءا بالخلية المتكونة من العائلة الصغرى ، الى العشيرة التضامنية الاكثر سعة والمحددة بأقرباء العصب ، وصولا الى العشيرة الواسعة ، والمدينة ومجلس الشيوخ والاشكال الاخرى التي تكرس الامتيازات المتعلقة بالسن في المجتمعات القديمة .

اما في لبنان وفي المجتمعات العربية فلا يزال يلعب « مبدأ الاكرام » دوراً مباشرا وخيرا . وهو في أساس تراتبية معينة على صعيد السلطة في الجماعات والطوائف وبين الاشخاص . الا ان تقدم لبنان السريع واقترابه من القوالب والاشكال الغربية ، يعكس نسبيا ، وخاصة في المدن ، معالم التطور القائم في لبنان والشبيه بما يحصل في كل مكان اخر .

لكن الاشكال الحديثة للمجتمع والحضارة تشهد ، على انواعها ، اضمحلالا متزايدا وحتى الغاء كاملا للامتيازات القائمة على السن والخبرة المكتسبة ، وذلك بسبب تفتح الشباب المبكر ، تحت تأثير تيارات المساواة والمنبثقة عن الديموقراطية الاجتماعية والسياسية اولا ، وثانيا ، وخاصة بفعل نمو وتطور التربية الفكرية والعقلية ، اذ يبدو ان هذه التربية تعطي النشىء خبرة نظرية وعملية في مجال النشاط التقني والمادي لا تقل اهمية على الاطلاق — او يعتقد ان الامر كذلك — عن التربية المكتسبة بالخبرة وممارسة الحياة .

اما في المجتمعات خاصة الاشكال الاجتماعية الاكثر ديموقراطية او عدالة ديموقراطية شعبية ، ديموقراطية اجتماعية وأشتراكية ، مجتمعات منفتحة .. نجد ان للشباب تأثيرا ونفوذا اكبر :

حق الاقتراع في سن الثامنة عشرة بدل الواحدة والعشرين، حركات منظمة للشبيبة ، « كومسومول » ، تنظيم اوقات الفراغ ، وجود الشباب في مناصب حساسة في الدولة الخ.. اما المجتمعات القائمة على نظام الديموقراطية السياسية العادية ، وهي مجتمعات مقفلة قائمة على النظام التسلسلي، فيبدو قد تأثرت هي ايضا بالتطور التقني ، وبمبدأ الاستخدام

الكامل ، وبقانون تفتح العباقرة المبكر . ويبدو أن هناك ايضا توافقا كبيرا في هذا المجال بين التعارض القائم بين الرجعية والتقدمية من جهة والتمييز (المبهم) بين الشباب والشيوخ .

اذن ماذا سيكون الدور المناط بالطالب في عملية بناء الامة في أطار هذه المجتمعات الجديدة ؟

يبدو ان المشكلة اكثر تعقيدا مما نتصور وانها شبه ثنائية : اذ على الطالب ان يسعى الى اعداد وبناء نفسه قبل السعي الى بناء الامة ، او بالاحرى لا يمكن فصل المحاولتين عن بعضهما البعض وعلى كل منهما أن تتماشى مع الاخرى . بعد أن قرأت «باسكال» و «بلونديل» و «برغسون و «غاندي» والاناجيل ، و « كتب الحكمة » وغيرها ، وفيما كنت لا ازال في مطلع الشباب بعد نهاية مرحلة الدراسة الثانوية ، وضعت في صميم تأملاتي الفكرة التالية واعتبرتها صيغة توجهية في سبيل اختيار مهنتي المستقبلية .

« الله والغير هما الشيء نفسه . اما المهم فهو الخروج من دائرة الذات » .

« لن تكون ابدا مثقفا بالمعنى العادي للكلمة ، اي هذا الشكل الجديد للطبقة الاجتماعية ، هذا النوع من ارستقراطية المعرفة المزعومة .

في هذا العالم الذي صار فيه الالتزام بالمعنى الانساني الكامل ، يعني التزاما مرده البحث عن الخلاص ، ان على الصعيد الفردي او على الصعيد الجماعي ، وفي عالم صار المجتمع يتحول فيه الى بنية شديدة ، التنظيم ، الى نوع من الكائن الاجتماعي ذي الخلايا المعقدة ، وهو في الحقيقة النتيجة

الحتمية للتطور البيولوجي ، في عالم كهذا اكتسب الدور الذي يلعبه الطالب اهمية متزايدة .

لقد بدأ يتزايد تداخل فئة المفكرين والمثقفين مع الشرائح الاجتماعية حتى تكاد تغمرها . وتعمل على تغييرها ، مثل يعمل « تطعيم جديد » على تغيير شجرة في عقدها الثامن . ونادراً ما تلاحظ هذه العملية التي تتمثل بوضع النبيذ الجديد في الادنان القديمة » .

علينا ان نعترف ان عملية تكوين بنية مجتمعنا امتدت على ألوف السنين وانها افرزت مفاهيمها وقيمها الخاصة المنبعثة مباشرة من اختبار انساني يقاس بالقرون ، كما تفتحت هذه البنية في اطار حضارة شرقية وعربية .

وها نحن ابناء الثلاثة والعشرين ربيعا ، تفتح شبابنا بين أربعة جدران حدودها مبادىء المذهب العلمي الواثق كليا . بامكانيات العلم اللانهائية ، وهي تربية شبه علمية في غالب الاحيان، ها نحن نعمل عمدا او عن غير قصد على تهديم البناء ، على تخريب « انسجامه » ، على تصديعه وعلى زعزعة قواعده وأسسه بعنف او ببطء اكيدين ، غير مبالين بجهد العصور الشاق والدؤوب . هذا من جهة ، اما من ناحية ثانية — وهذا لا يقل اهمية عن ذاك — فان اختيار رؤسائنا وقادتنا يتم وبصورة متصاعدة من بين اعضاء فئة المفكرين هذه . وسوف يفعل هؤلاء القادة فعلهم ويؤثرون فعلا على عملية تطور المجتمع اللبناني على الصعيد الاقتصادي والثقافي والسياسي والاجتماعي السائر نحو التفتح الكامل .

للمجتمعات كما للافراد حياة وروح خاصة ، وعلينا الا نمس هذه الروح قبل الامعان بالتفكير وبمعرفة ماهيتها .

سأكتفي هنا بايراد كلمة من الانجيل : « ماذا ينفع الانسان اذا ربح العالم وخسر نفسه ؟ وماذا بالاحرى لو عرفنا ان نفسنا الفردية الخاصة هي بتعقيداتها (تعقيدات المعرفة والشعور) من هذه الزاوية،جزء من الروح الاجتماعية نفسها ؟

كثيرا ما يكون أبناء العشرين عاما مندفعين كل الاندفاع ومتحمسين كل الحماس ، وغالبا ما يفهمون الفكرة التقدمية على طريقة اصحا بالموسوعات في القرن الثامنعشر او رجال العلم في القرن الثامن عشر . الا ان هذا اللون من التقدمية قد زال منذ زمن بعيد وفقد كل قيمة وجودية . والتقدمية على هذه الشاكلة ، ليست الان سوى زقاق فرعي وانحراف شبيه بدرب من دروب التطور البيولوجي من شأنه أن يؤدي الى طريق مسدود .

ان الدور الاساسي المناط بالطالب في البلدان صاحبة الثقافات القديمة ، هنا في عالمنا العربي أو في جنوب شرقي آسيا او في الشرق الاقصى — اما الوضع في افريقيا فهو مختلف — هو في استيعاب كامل للبيئة التي يعيش ، لعادات الجماعة التي ينتمي اليها ، وبوجه الخصوص لروح هذه الجماعة . أن نكون لبنانيين يعني أولا ان نفهم من نحن ، وما هو لبنان ، وما هو المجتمع اللبناني ، وان نفهم ماذا يعني هذا المجتمع من قوة خفية فعلية (اذا صح القول) ومن قيم انسانية ومن روح استمرارية ، وماذا تعني كمركز للاندماج والانصهار . أما بالقبول بالحضارة التقنية الغربية ، فيصبح ممكنا ومفيدا بعد انصهارنا واندماجنا في « المركز » المذكور . واذا ما تم ذلك نكون قد نمينا في ذاتنا

هذه القدرة على « التمييز » ، التي هي أرقى تعبير عن العقل البشري وأفضله قيمة . وبما اننا ندعي النظر الى الاشياء بصورة علمية ، ألسنا في النهاية — افرادا وجماعات — مركز التقاء احداثيين (١) : احداثي المكان من جهة، واحداثي الزمان من جهة اخرى ؟ والاحداثي الاول يتعلق بموقفنا الجغرافي ، بهذه النقطة المحددة التي رست عليها سفينتنا البرية بجبالها وسهولها الضيقة .

اما الاحداثي الثاني فهو يعني ما هو ذهني ، اي العقل بالمعنىالفكري (لا الروحي للكلمة ، وبمعنى اخر ، التراث : التقاليد ، مفاهيم الفكر الاجتماعي ، السلوك العام ، القيم الاخلاقية وحتى الدينية ، التهذيب الخاص بنا ، وهذا الفعل التبلوري الذي نضج على امتداد العصور وجعل منا ما نحن عليه الان . اما الانسان والمستوى الاجتماعي من هذا المنظار ، فهما كون ذو بعدين : الزمان والمكان . وهذان البعدان مترابطان في اطار علاقة فعل وردة فعل نسبية ، وعلاقة استقطاب وتعبير لا تقل وضوحا عن قانون النسبية العامة الطبيعية .

وبناء لبنان يعني الانطلاق من هذه الاسس .

ومن البديهي والطبيعي ان نضيف الى هذا المفهوم الثنائي « للشيء » الانساني والاجتماعي على اعتبار ان الاجتماعي والانساني مستويان لا يجوز الفصل بينهما — بعدا ثالثا يتخطى الزمان والمكان ويستكملهما . كما ان هذا البعد الثالث هو في اساس ظهورهما وكيفية تكونهما الثنائي . وما هو هذا البعد ، هو بعد الروح ، هو المقياس الحقيقي للاعماق والشرط الملازم لكل معرفة نهائية . هو المركز الحقيقي

(١) Coordonnées.

للانصهار « الانساني » و « الاجتماعي » . هو : الروح التي تصلي في داخلنا بأنينها الذي لا يوصف كما كان يقول القديس بولس الرسول .

نحن نجد أنفسنا منكبين في بعض الاحيان على التفكير بخيبات الامل والنتائج الفاشلة الناجمة عن سوء فهم « الارتقاء » الى مستوى الحضارة .

لن نأخذ مثلا سوى هذا الذي يعنينا مباشرة ، ظاهريا وكل يوم .

في منزلنا الريفي نخرج عند الفجر او مع ظهور الشمس الى الشرفة لنتنشق نفحات من الهواء الطلق النقي . ذلك انكم تعرفون ان الانسان يستطيع البقاء أياما بدون طعام وماء الا انه لا يمكن ان يتوقف ولو لدقيقة واحدة عن التنفس بسبب هذا التفاعل المتبادل بين الحياة والنفس حتى ان كلمة «حركة» كانت تعني في الاصل « نفس » ، ولا حياة جيدة بدون تنفس جيد .

وانا لا اتكلم عن ذلك فقط بداعي التقليل من أسلوب العيش العصري في المدن في مبان ضيقة ملتصقة ببعض الى حد عدم التمييز بين الواحدة والاخرى ، بل بهدف الاشارة الى قرية صغيرة قائمة على كف تلة كبيرة مواجهة لي . نادرا ما نسمع في هذه القرية عن النميمة والالسنة السليطة . والى حد ما يتذكر الانسان ، لم يحصل ان سمح احد لنفسه بالسرقة حتى بما سمحت به الديانات للجياع من سرقة عنقود عنب او ضمة قمح ناضجة . حتى عقود البيع والشراء ، وفرز المنازل والاراضي والحقول كلها تتم بوعد كلامي بسيط ،

بانحناءة قبول شفوية احترمت دائما ولم يتنصل احد من قوله ابدا حتى بعد موت احد الفريقين او كلاهما . والعقود المسجلة التي حدت من مستلزمات ومدى نزاهتنا الاخلاقية وأفسدتها ، لا مكان لها في هذه القرية .

هناك ايضا قريتان تقع احداهما على بعد بضعة كيلومترات من صوفر او عالية ، لم يعرف سكانها اجمعين شتيمة او كلمة كفر . كانوا عقالا بالمعنى الحقيقي للكلمة . واذا ما حصل خلاف او نزاع حدود بين هذه القرية وبلدة مجاورة لا يحترم اهلها الآداب على هذا الوجه من الدقة لجأ « العقال » الى « استئجار » نوع من «الشتائم العمومي» والمحترف للرد على نكايات وصيحات وشتائم الزمرة المقابلة .

وبالطبع هذه التقاليد تزول او هي في طريقها الى الزوال . وللاسف ، لان الآداب ومفاهيم النزاهة والصدق والشرف هي من أرقى تعابير واشكال الحضارة .

واني أسمح لنفسي ان أشير ، على هامش هذه الوقائع والتصرفات الجديرة بالاعتبار ، الى دهشتي واقشعرار بدني امام تصرف بعض الزائرين يوم الاستقبال الاسبوعي ، أي يوم الاحد ، اذ لم يكتف هؤلاء بتسميم جو الغرفة بنفث دخانهم الحاد ، بل اذنوا لانفسهم عمدا باطفاء أعقاب سجائرهم على البلاط او على هذه السجادات القليلة البالية التي ما زلنا نحتفظ بها في دارنا القديمة . لم نعرف هكذا تصرفات في الماضي وحتى ان العقل لم يكن ليتصورها منذ ثلاث او اربع سنوات ويبدو ان السلوك الاميركي بكل وقاحته ولا مبالاته قد مر من هنا .

صحيح ان هذه ليست سوى أمور تفصيلية بسيطة

الا انها تشير الى أي مدى من التفكك والعدوى والتبدل صرنا خاضعين الان حتى في أبسط اوجه او اشكال حياتنا .

نحن نفكر بقلق بهذا التأثير المتنامي للسينما وخاصة للتلفزة على سلوكنا وفكرنا وعاداتنا واخلاقنا وتأثيرها على أطفالنا واخوتنا الصغار ، وعلى مدى تأثيرها على هذه الجموع من الفلاحين والعمال التي هي وحدها القوة المتكتلة والدائمة الوحيدة في شعبنا .

وعندما نقول كل ذلك فاننا نفكر ايضا بهذا الاعجاب البليد بما هو شائع — لان الانسان مقلد من الطراز الممتاز كما أن في بالنا هذا التيار القائم على الحرية المنفلتة والفجور والفسق الذي يردنا من كل مكان وخاصة من « بلاد ما وراء الاطلسي . أو ليس فجورا كل هذا الذي يسيء الى العقل ويهينه ؟

يحاول هذا التيار عمداً ايقاظ الحيوان الكامن في اعماقنا ، الا أن للحيوانات على الاقل غرائزها الخاصة وهي توجهها على أكمل وجه حسب انماطها ومصيرها . اما الانسان فقد افتقد هذه الغرائز المنظمة الضابطة ولن يبقى له عقل او فطرة سليمة ليهتدي بهما . نحن لا نعني هنا هذه الخيالات من رقصات وموسيقى أو صور تشيد وتدعو الى عدم الانسجام الى الخرافات السيئة غير المألوفة ، والاخلال بالتوازنات . ما نهدف اليه هنا ما هو الا المؤشر لهذا الاتجاه الى كل ما هو عار ، هذا الاتجاه الى العبقرية الذي يشكل « الستربتيز » striptease اي التعري الاميركي احد انماطه . كما اننا نقصد بكلامنا هذه « الوجودية الكاذبة » البورجوازية الماركسية أو السارترية او غيرها . ويبدو

انه يراد تحدي ثلاثين او خمسين الف سنة من التقدم الانساني ، اي منذ آرتأى انسان ما قبل التاريخ بدافع المنفعة واللياقة ، آن يرتدي ثوبا معينا ، ربما تحت تأثير الظروف المتعلقة بالمناخ . وكان فعل هذا الرجل طبيعيا ، ومن طبيعة بعض اقوام افريقيا التي تجد ... من الطبيعي .. الا ترتدي اي ثوب . الا ان المقصود هنا ليس العودة الى الطبيعة وانما اثارة الفضيحة .

علينا ان نتذكر هنا هذه الكلمة الانجيلية الشهيرة ...

« لا تكونوا سبب فضيحة للاخرين ... »

وربما علينا ايضا ان نستذكر هنا كلمة شري راما كريشنا » :

«هل ان العالم سائر على درب التحول الى مأوى كبير للمجانين ؟ أم ان الانسان — كما المحنا سابقا — يسعى الان الى أحياء غرائزه ليعطي لنفسه وسائل ضبط دائمة وأمينة ؟ ولكن هل هذه العملية قابلة للانعكاس ؟ وبأي ثمن ؟ هل سيكون هذا الثمن بارتهان « عقلنا » و « ذكائنا » و « حريتنا » » ؟.

يبدو ان رجال الفضاء الذين يدورون حول الارض في دوائر لا عجيب فيها سوى تأكيدها وتحقيقها لاحد قوانين علمنا النظري ، ولاحد القوانين التي اكتشفها عقلنا ، اي قوانين نيوتن Newton وكبلر Kepler ، ويبدو ان هؤلاء قد ابتعدوا عنا اشواطا كبيرة وتركونا هنا ، عالقين على هذه الارض ، في كتلة من الطين .

ما هذه الحضارة التي لا تعرف شيئا عن الاخلاق المدنية القديمة ؟

ما هذه الحضارة التي لا تعرف شيئا عن التمدن ؟..

هناك قطاع يعني الطالب مباشرة وعليه أن يوليه كل الاهتمام .

هذا القطاع هو : تنظيم اوقات الفراغ ، وتنقية اجواء السكن المديني ، وبناء مدن صحية ، والعودة الى الطبيعة . ويبدو ان لبنان بدأ يتفتح على هذه القضايا ، وفي هذا الاطار يمكن للطالب اللبناني ان يلعب دور الدافع تجاه السلطات لحمل هذه الاخيرة على ايجاد الحلول الملائمة للمشاكل المطروحة . وذلك انه لا يمكن القيام بأي عمل في لبنان ما لم يكن هذا العمل مقرونا بارادة جماهيرية مديدة وثابتة في عزيمتها .

ان المطلوب هو النهوض بعملية تقويم . ولكن هل هذا التقويم ممكن في اطار هذا الشكل القائم من الديموقراطية ؟

برأينا ان الجواب هو بالنفي . ان الديموقراطية الراهنة في لبنان ، هي ديموقراطية برلمانية قائمة على قانون الاقتراع اي على قاعدة « العدد الاكبر » ، وهي لا تلزم بأي شرط لا المواطن الناخب ولا المرشح للانتخابات .

ان اهتمام المرشح غير المنتمي الى حزب معين ، باعداد الناخبين ، اي استهدافه الاكثرية النسبية ، يفرض على هذا المرشح التوجه الى اكبر عدد من الناخبين اي يدفعه الى مسايرة اتجاهات واوهام هذا الجمع الصغير الذي يشكل الهامش الضروري حتى يصبح النصف (نصف الناخبين) نصفا زائدا واحدا ، اي حتى ينال المرشح الاكثرية النسبية .

يعطي نظريا لكل مواطن اتم الحادية والعشرين من

عمره ، امكانيات تسمح له بالاقتراع بشكل صحيح وسليم ، كما يفترض بدون تمييز ان كل مواطن بلغ سن الخامسة والعشرين ، مؤهل لان يكون مرشحا صالحا .

ان هذه الافتراضات تتطلب قدراً كبيرا من التفاؤل والخيال ، ويبدو ان شبح الثورة الفرنسية ما زال يلاحقنا وان روسو ليس على وشك التخلي عن تأثيره على عقولنا وفكرنا .

علينا ان نشفى من هذه المخادعة .

بالطبع يبدو ان مثل الانظمة الكلية النازية ، الفاشية او الشيوعية ليس مشجعا للوهلة الاولى ، فهي أنظمة تحصر مفهوم الاختيار ، وبروز القادة ، في اطار اعضاء حزب واحد او جبهة سياسية معينة ، كما انه يحدد في هذا الاطار ايضا عمليات الترشيح والانتخاب . وقد رأينا الى اية تجاوزات مرعبة ونتائج معادية للانسانية يمكن ان يؤدي في بعض الاحيان مفهوم كهذا لارادة الشعب .

الا انه لا بد من نمط تنظيم معين لعملية الاقتراع ، ولتمييز العناصر الافضل ، كما لا بد من تحديد ماهية الكفاءات في سبيل اعادة السلطة الى الدولة . فالديموقراطية الحقيقية هي السلطة المرتبطة بالشعب وليس حكم الشعب بواسطة الشعب ، وهي صيغة اقرب الى الخرافة والوهم منها الى شيء آخر .

ان الدور الذي يجب ان يناط بالطالب — واللبناني على وجه الخصوص — هو المساهمة في البحث عن صيغة ديموقراطية للبنان ، اي صيغة بعيدة كل البعد عن حكومات

وسلطة الاحتكارات والتكتلات السياسية والاقتصادية وعن الديماغوجية الشعبية في آن معا .

ان الثورة الفرنسية أرادت قلب معنى السلطة نفسه وتركيز الهرم على احد أطرافه وليس على قاعدته ، فأحدثت تغييرا في مدلول وفاعلية وقيمة هذه السلطة .

اما مفهوم الديموقراطية فيجب أن يعني عملية تنظيم القيم (لا الاشخاص) وتربيتها وصهرها . الا أنها لا تعني تسوية وتمهيد هذه القيم وهذا الترتيب .

ويندرج دور الطالب السياسي في هذا الاطار : على الطالب أن يبعث سياسة التقدم الاجتماعي ويعمل على اعادة سلطان « الاجتماعي » على غرار القرون الوسطى كما يقول « برديابيف » أن ينشط في سبيل بعث « قرون حقيقية وسطى » un veritable moyen-age لا حصر ولا تصر فيها ، ولا تزويرا للقيم او اضطراب وبلبلة في السلطة او امتياز سياسي او روح طبقية . كما يجب النضال وبهذه الروح في سبيل السلام والديموقراطية ومن أجل اخلاص وطني صادق ومتفهم وأقامة نوع من الرفاهية الاجتماعية . وعلى هذه الرفاهية ان تكون في موقع وسطي ، فلا افراط ولا تقليل على هذا الصعيد بل اعطاء ما يلزم ويكفي لارضاء كل الناس . ذلك انه اذا كانت حالة العوز والانعدام عائقا وشرا كبيرا وعامل انقاص للشخص البشري ، فان الكثرة والبحبوحة الفائضة هي بدورها عائق من نوع اخر يقف عثرة امام تطور الانسان السليم . ويخشى في هذا المجال أن يهلك الانسان او يضيع في «المتاهة»، أو يغرق في التلذذ بهذه البحبوحة الموفرة له جسديا وماديا كل افراط وتطرف هو شر . اما

على الصعيد الاخلاقي فالافراط يؤدي الى انحراف او تشويه وافساد . أليس الاكثار من الطعام السبب في كل امراضنا والمسبب الاول لحالة الاضطراب والقلق التي نعيش ؟

أوليس هذا السبب وراء ارادتنا السيئة ؟ كما علينا ايضا ان نتذكر باستمرار أن هناك ما بين المليار والمليار ونصف المليار من الجياع او شبه الجياع في هذا العالم ، في الوقت الذي نرى فيه بضعة مئات من الملايين فقط تأكل وتنفق وتتمتع اكثر من اللازم .

كما ينبغي على الطالب النضال من اجل قومية منفتحة تعمل على ترقي المنازعات المحلية (التي تكثر في لبنان) والعصبيات الدينية على اختلاف أنواعها . وذلك انه لا انبعاث لمشاعر الولاء للوطن دون بعث « نسبة معينة » من الشعور القومي والتضامن الوطني . وهذا الكفاح هو نضال من اجل ارتقاء بسطاء وفقراء المدينة الحقيقيين ، هو نضال من اجل تعميم « روح الارض » على هذا الكوكب وهي روح التوحيد ، توحيدنا جميعا في عملية تخط لكافة الحواجز والعوائق العرقية والدينية والقومية والطبقية وصولا الى « الاب الواحد » و « الاله الواحد » .

ولا يسعنا الا ان ننصح الشباب بالتوجه نحو العمل الاجتماعي الذي بدأ يبرز وينفتح في أطار بعض هذه المشاريع الجميلة التي رسمتها وحددتها مصلحة الانعاش الاجتماعي اللبنانية .

على الطلاب والشباب المطالبة بتأسيس العمل الاجتماعي الالزامي على غرار الخدمة العسكرية في البلدان

الاخرى . ومن شأن هـــذه الخدمـــة الاجتماعية الالزامية ان
تكون منبعا خلاقا من منابع الوحدة الوطنية والتفهم والتعاون
التضامني او المبني على الصداقة البسيطة . ومن شأن العمل
الاجتماعي الالزامي ، بتأثيره على الطلب في احدى مراحـــل
حياته وحتى في فترات اخرى من هذه الحياة ، المساهمة في
تحويل لبنان الى « مدينة » « الوئام والوفاق والعمل » .

ان الذين لا يعملون لانهم لا يريدون العمل ، هم الجرح
النازف في هذا الكون . والحال فان المطلوب هو أن نكون قبل
ان نفعل . وفي هذا المنظار فان الطالب يمهد للمواطن ويبشر
بالانسان . ذلك ان الكائن البشري ليس هو بالانسان ، بل
هو مرشح ليصبح هذا الانسان . وهنا يكمن الفارق الاساسي
والتعارض الكياني بـين الحيـوان و « الاومومبابيانس »
homopapiens الرجل القادر على المعرفة الذي هو نحن .

من هنا اهمية المعرفة ... ان نعرف يعني ان نكـون
بصورة ما ، انه نمط من الكينونة بذاته . واذا كان الحـال
كذلك ، فماذا نقول اذن عن « المعرفة الحقيقية » لجوهـر
الوجود الاخير ؟.

ان الافراد والثقافات والحضارات تختلف وتتمايز عن
بعضها البعض بسبب نظرتها ورؤياها المختلفة للاشيـــاء
والامور ، وبسبب اختلاف وتنوع مفاهيمها ونمط معالجتهـا
لهـــا .

ان الدين هو معرفة .. والاختيار الروحاني معرفة ...
والعلم هو معرفة ... والفعل هو ايضا معرفة لانه في النهاية
اختبار محدود لاشياء محددة وللعلاقات التي ترعى دورتها !

اننا نرى ان وحدة اشراقية داخلية كهذه ، ضرورية

لادراك حقيقة الانسان والتعبير عن مضمون هذه الحقيقة .
واذا أردنا تلمس الانسان بمفهومه الحقيقي وبعث نمط من
التربية الانسانية والملائمة ، فعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار
تعابير الكائن بكليتها ومجمل التوجهـات نحو الوجود نظرا
وتأمـلا .

لقد تكلمنا عن الالتقاء الذي لا مفـر منه بين التعبير
المتعدد الاشكال عن الوجـود ، واساليب معرفة هـذا
الوجود . وهذا يعود الى وجود اللطف الالهي في كل مكان ،
كبذرة كل وعي باطني ، في الدين او الاختبار الصوفي ، او
العلم ، او العمل . ان المعرفة والتعبير يستدعيان ويتجاذبان
بعضهما البعض ، كما هي الحال بين قطبين ذوي شحنتين
مختلفتين ولكن متماثلتين في طبيعتها ، كالصوت وصداه ..
كان بيغي Péguy يقول : كل شيء لطف الهي .. وعلينا
الاعتراف هنا ان التربية اللبنانية ، كأي شكل من اشكـال
التربية الغربية ، تجنح لان جنوحا متصاعدا الى اهمـال
الاسس الانسانية القديمة لتصبح كما يقال أكثر تقنية وفاعلية
على الصعيد العملي . مع ان التقنية ليست ، من زاويـة
محددة ، سوى اقل جوانب العلم شوقا : هي ، « السحر »
الذي يجتذبنا الى « الخارج » ، والذي لا يعكس من الحقيقة
الا شبحها ، أو بصورة اخرى هي التطبيق العملي « للقانون »
وليست القاعدة أو المبدأ بذاته .

ومن الطبيعي أن يكون هذا الاتجاه الانساني القديم قد
قدم واصبح خاضعا لمفاهيم هي من مخلفات القرن السابـع
عشر او القرون الوسطى ، وانه آن الاوان ليتطور .

ولقد انبثقت انسانية علمية جديدة من المعطيات النهائية
والنظريات والمفاهيم الاخيرة في العلم ، الذي اصبح بدوره

ايضا نوعا من التأمل ، « ما فوق الفكري » المتوافق تماما مع بعض الرؤى الدينية ومع الروح الكلاسيكي للروائع الادبية في مكتباتنا القديمة والحديثة .

ان المادية المزيفة للعلم التحليلي في القرن التـاسع عشر ، قد ماتت واندثرت واندفنت . وسأكتفي هنا بسرد بعض النتائج التي تعرفونها ولا بد :

« لا معنى لمفهوم المكـان اذا تم فصله عن ادراكنا للاشياء ، كما انه لا معنى لمفهوم الزمان اذا ما فصل عـن اختبارنا للاحداث » « جايمس جينز » .

اما المادة وهباءاتها الاخيرة فان : « خصائص الاشياء المحددة تزول ، كما يتصورها الانسان العادي ، فهي مجرد منطقه تنطلق منها اشعة الطاقة » ...

لقد زالت المعالم الاخيرة للذرة الجامدة واصبحت المادة شبيهة بأشباح جلسات استحضار الارواح « برتراند رسل » .

« ان هذا الواقع الصريح والواضح المتمثل ـ بعدم تعاطي العلم الطبيعي (الفيزياء) الا مع عالم من الظـلال يعكس تقدما ذا مغزى كبير » « ادينغتون » .

الم يقل ايضا العالم بوظائف الاعضاء الشهير ، السير شارل شنينغتون Charles Shénington اشياء تثير دهشة أكبـر ؟

انه يردد بالحاح ما يلي : ليس الانا بشيء ملمـوس

ومرئي ، والحواس غير قادرة على « فحصه » وفهمه . ولن يصل الانا ابدا الى مستوى الادراك الحسي . الانا هو وعي صـاف .

يبدو الانا وكأنه مغلف بنوع من الفضاء الحسي ولكن هذا الفضاء لن يلتصق به ابدا او يعطيه صفة الامتـداد . وليس للفضاء الحسي أي مأخذ او ارتباط بالانا ولا يمكن ان يتصل به ويطاله .

« والانا يتواجد في مركز عالم من « الاشياء » ، وليس لهذا العالم أية أشكال او معالم او قياسات او ابعاد . هذا العالم غير مرئي وغير ملموس وليست له صفات حسية . وليس للمكان الملموس اي سلطان على الانا ولا يدركـه ابدا » .. اما نحن فنعي الانا وندرك بصورة مباشرة تفوق بسرعة ادراكنا للعالم الملموس الكائن (في المكان) من حولنا ، وذلك لان الانا هو اختبارنا المباشر . « هو الذات » مع انه لم يكن مرئيا ابدا او « مسموعا » رغم امتلاكه قدرة الكلام والنطق . يبقى الانا ، اذن متعذر المنال بواسطة الحواس رغم انه يعرف نفسه بنفسه مباشرة ... معطيات مـن المصدر والمنبع .. الا انها حصينة ممتنعة ...

ان المعطيات شبـه الانطولوجيـة Antologiques والمتعلقة بتصورات العلم الرمزية الاخيرة تسلط لا مثيل له على الانسان والعالم ، على شكل « استشفاف صوفي » . من هنا أهمية أختراق الدين والسياسة والمستوى الاجتماعي بواسطة رؤيا كهذه . يجب بان يتنامى في ذاتنا هذا الاحساس الكاشف للاشياء الاخيرة وذلك رغم الاجتذاب الذي يشدنا تجاه هذا السحر المريع الذي اسمه العلوم التطبيقية .

يفتقد العالم الى رؤيا شاملة للاشياء كما يفتقد الى مفهوم روحي جديـــد للحضارة ، اي الـى نـوع مـن اجل جديــد ، علــى جيل طابور Thabor للانسان الذي خلقته التقنية الحديثة . ان خلاص « الدين » « والاخلاق » والقيم التقليدية والانسان ، لا يمكن ان يكون آلا على هذه القاعدة وفي اطار هكذا تصحيح وتوجيه .

اما دور الطالب في كل ذلك ، فهو أن يزيد من تعرفه على نفسه من اجل تفكير وعمل افضل . ويكمن دور الطالب على وجه الخصوص في نشر هذه الانسانية العلمية الجديدة .

وليسمح لنا هنا ان نستطرد للمرة الاخيرة ان المهمة التي تقع على عاتق الطالب تتزايد اهميتها الجوهريـــة في عالم يلعب فيه آلذكاء وتلعب فيه المعرفة دورا مسيطرا .

وتقتضي هذه المهمة ان يعمل الطالب على تنمية قدراته على التمييز ، وهي من أرقى وأعلى خاصيات العقل الانساني. على آلطالب أن يفرق دائما وابدا بين الحنطة والزؤان ، وذلك من اجل نفسه والاخرين . « لقد حولت الحضارة الحديثة الانسان الى كائن سلبي ، وربما هو الذي دفع نفسه بنفسه الى هذه الحال بسبب تراكم خموله الذهني بعد أن اصبح يقبل كل شيء ، وبعد ان الغى في معظم الاحيان الدور الخـاص بعقله وطمس مساعي وجودهالباطني الخفية من أجل الترفع الانساني المحوري » .

ليس كل ما هو جديد ، جيدا او خـــيرا ، او جميلا بالضرورة .

واذا ما فكرنا قليلا نجد ان القبائح القائمة في هـــذا العالم ناجمة في النهاية من سوء استعمال الذكاء .

أن العودة الى المحور تعني العودة الى غنــى النفس الحقيقية ، والعودة الى البهجة ويتمثل ذلـك : بالاستقرار والصفاء الذاتي ، والشفقة العميقـــة تجاه « الضيف » الداخلي ، وتحول الانسان الى قوة تفهم تجاه الاخرين .

ليست الحياة سوى الشعور بالوجود وادراك هــــذا الوجود ووعيه . ان الحياة والوجود همـا الشيء نفسه ، والصلاة هي في النهاية ان نعيش « حيـاة حقيقية » ، ان نكون موجودين .

ومن وراء منطقة « ما تحت الذرة » التي هي مصدر اشعاع الطاقة ، من وراء هذا المكان الفريد ، هذا المحـور بلا ابعاد لكرة لا حدود لها ، من وراء كل ذلك يبدأ عالـم الجمال الذي لا يوصف ، هذا الجمال غير المرئي والذي لا مواصفات زمنية له ، ومع ذلك فهو جمال حقيقي كل الحقيقة.

دور القوميـــة في تقويـــة
المجتمعات الحـــرة او في تقويضهـــا

لو امكن لدون كيخوت أن يعرف نفسه .

(...)

« الحضارة الحقيقية هي التـــي تجعل الانسان اكثر فأكثر حرا ... المتمدن الحقيقـــي هو الذي يكون كذلك في داخله لا في خارجه ، في الشخص لا في الغرض » .

شري اتمانندا

« ان الذي يعتبر نفسه حرا يصبح حرا والذي يعتبر نفسه مقيدا يظل مقيدا » .

أشتفاكرا

في اقدم العصور واجه العالم القديم قضية القـــومية وتاثيرها على مصير الحرية ضمن المجتمعات الحرة . فمنذ الالف سنة الاولى قبل المسيح ، او حتى قبل هذا العهد من التاريخ ، تعرف الشرق الى مشاكل القومية « فخطيئة كنعان الاصلية » كما كان يلقبها احد المؤرخين الغربيين أنتشرت

انتشارا كبيرا على الشاطىء الفينيقي الذي كان يشكل التتمة الطبيعية للشاطىء اليوناني في آسيا الصغرى بلاد أوليس . وكان من نتيجـــة هذا الانتشار آن تعـــددت الجمهوريات الشقيقات المستقلة فكانت الحاضرات التجارية الحاملة اسم بيبلوس وبيريت وصيدون وصور ، اجل صور تلـــك التي اسست واوجدت قرطاجنة الشهيرة .

وليس من المصادفة أذن فيهذا القطاع من العالم الجديد القديم في آن واحد ، الواقع في هذا المربع الشامل لسوريا وبلاد ما بين النهرين وما حولها والمرتكز على امتدادات الاقاليم العربية في آسيا وأفريقيا حيث تتقرر مصائر النفط ليس من المستغرب ان يشهد العالم الحديث تيارات القومية والانعزالية والاقليمية التي تهز العالم العربي وتحـــدوه على رفض كل مساومة مع اسرائيل وكل تحالف مع اوروبة . وبين هذه التيارات تبدو ربما نزعة مغرضة متطرفة لكنها ضئيلة الشأن ، تستنهض العالم العربي على مصارعة الغرب نفسه .

فاستنادا الى الاحداث المعقدة التي تخض بلداننا في الشرق سأحاول ان اظهر المقومات الاساسية لقضية القومية على ان اطرحها فيما بعد على صعيد أرفع نسبيا ، وحيث يجدر بنا في النهاية ومن هذا المنظار ان نعالج القضية .

مركب النقص والقومية المتطرفة

« كل شيء يولد من ضده وعكسه ، كما ينبثق الظلام من النور ، ويصدر الفرح من الحـــزن ، وكما يولد الامتلاء الروحي من فراغ النفس وتجردها » .

سيظل مركب النقص يلعب دورا كبيرا في حياة البشر ولن يؤثر على حياة الانسان في المجتمع ، طالما اننا لم نتوصل

بعد الى ادراك عوامله الخفية واسبابه العميقة . ومركب النقص هذا يتجلى في نوع من الحيرة والارتياب والتوقف عن النمو ، وهي ظاهرات تميز المجتمعات المغلقة او المتخلفة اقتصاديا . ويتفق احيانا ان يتحول هذا المركب تحت تأثير الخطباء السياسيين المهيجين ، الى نقيضه ، اي مركب المجد والعظمة الجماعية ، والتعصب القومي الذميم والطموح اللامحدود الى ارادة السيطرة والقوة .

وهذه القومية المشددة على ذاتها وذات النزعة العدوانية هي طبعا « النتاج السيكولوجي النفسي الطبيعي لهذه النزهة الدونكيخوطية » . واذ ذاك تكون الطريق معبدة ومهيئة لظهور شتى المناظرات والهرتقات السياسية الاجتماعية ، او الانظمة الكلية التي لم تشكل منذ عهد جنكيزخان ، وحتى قبله على الارجح ، ظاهرة جديدة بجوهرها وروحها .

ان الفرد الذي اطلقت قواه الداخلية الغامضة والمظلمة من عقالها وفقد بذلك الرقابة على نفسه وسيطر عليه وهم امكان تحقيق ذاته خارج ذاته ، يندفع في نفسيته المجهدة ، والمشدودة وراء الجاذب اللاعقلي المبعد عن مركز الانطلاق والمحور النفسي ، كما تندفع تماما ارادة المسحور وتستسلم لرغبات الساحر .

فمأساة هذا الانسان الذي اخرج عن نطاق ذاته ، هي انه بعد ان عجز الى حد كبير عن استكمال حركة الاندماج والنزعة الى التوحد التي تحركه وتسمو به على صعيد التحقق الشخصي ، اضحى يتصور ، في نشوة شططه المحض عاطفي اي اللاواعي ، انه قد يجد نفسه في نوع من التوحد

الخارجي ، يقابل هذا التوتر الداخلي العاطفي الشديد ويسير بموازاته ، او انه يقترب من الوحدة بقدر ما يزداد تهيجه ويمتد به سحر الصوفية الاجتماعية وتستيقظ من سباتها الحياة النفسانية الكامنة في الاعماق ، والتي تتمثل فيها قوى النفس المظلمة — هذه القوى التي لو افرج عن طاقتها الكامنة المذخرة تضحي في آن واحد اما اداة للارتفاع بالانسان تمكنه من تحقيق ذاته واما وسيلة لتجلي اعمال التخريب والهدم او تجسيدا للذهنية المتصفة بالبدائية .

ان ظاهرة السيطرة المطردة للجماعية ولتدخل الدولة وللآلية على الانسان الحديث ، والتي خلقت نفسية خاصة من نوعها ، قد بلغت من حدة التأثير ما جعلها احد الاسباب الحقيقية لظاهرة « الانظمة الكلية في مختلف وجوهها » : من النازية الى الفاشية الى الشيوعية ، وهي كلها في الجوهر ثمار الشجرة الواحدة ذاتها .

ولعل هذه الظاهرة هي ايضا المصدر الاساسي لأزمة الانسان ولأزمة الديمقراطية ولأزمة المدنية في هذا العصر الذهبي المزعوم كذلك .

ولئن استهللنا الموضوع بتوطئة ميتافيزيكية فلكي ندلل على ان معضلة القومية لا يمكن ان تتلقى من ذاتها حلا صحيحا نهائيا ، وذلك لان الجماهير في مجموعها لن تتوصل الى بلوغ الهدف المنشود . وكل ما يمكن تحقيقه ربما هو الاحتراز والتحصن ضد نتائج هذا الشعور القومي والتوصل الى الاعتدال في مظاهره (وهذا ليس بالحل الحقيقي) على صعيد المؤسسات الدولية . وذلك بخلق جهاز اكراه دولي يكون بمثابة وحدة او اتحاد دول عالمية ويلعب بالنسبة الى الامم الدور الذي تلعبه الدولة بالنسبة الى المواطنين .

ان العالم العربي فيما خص قضية القومية لا يختلف عن الشرق بوجه عام : فهو يشكو من مركب النقص اكثر مما تشكو منه أوروبة والولايات المتحدة والعالم السوفياتي . لان هذا المركب قد تحول في الغرب الى غير هذا الاتجاه من نـزاع طبقي وصراع في سبيل النفوذ العالمي ، وتسابق على التسلح الذري . وأزمة ثقة وخوف بين المعسكرين المتخاصمين وظهور المذاهب الكلية او الديمقراطية او الاستعمارية ومحاولات رسولية شتى وحتى هذا الاستعمار الجديد الذي يستهدف غزو الطبيعة عمقا لا مساحة والذي نجد له مثلا في الولايات المتحدة .

ان مركب النقص في الشرق تورط بعيداً في القومية بسبب الشعور بالحرمان والاستصغار الذي يحس الشرق انه مسؤول عنه على اثر التقهقر والجمود الذي تميز به عهد الانحطاط في الشرق عدة قرون . أو ليس الشعور بالمسؤولية او بالاذناب الخفي هو رفيق الانحراف العقلي الفردي والجماعي ايضا في اكثر الاحيان ؟ وهذه المسؤولية يتحسس بها الشرق بالنسبة الى المدنية الحديثة التي يشعر أنه حرم منها ، على غرار الولد الذي يود الحصول على الالعوبة التي يؤثر ويحب .

لقد خلقت المدنية الآلية الحديثة مركب النقص الخفي ، هذا الذي يحسه الشرقي ذاته تجاه الغرب ، وزادت في نموه وحدته . لان المدنية الغربية اصبحت ، بفضل أهمية مظاهرها المادية العديدة وقدرتها المتناهية ولعب سحرها المتعدد الوجوه والانعكاسات ، والامل الذي غذته بتطور وقدرة للانسان لا حد لها ، اضحت المدنية الغربية بفضل ذلك . المثل الاعلى الذي ينبغي على كل فرد كما يتوجب على كل

امة أن تبلغه والا استصغرت معنويا في المجال الدولي واحتقرتها سياسيا كل من الكتلتين الشيوعية والغربية . فتسمية البلدان العربية « بالبلدان المتخلفة اقتصاديا » قمينة بأن تذكر الشرقيين بمركزهم في العالم . ولان المقياس المتخذ ليس قيمة الانسان كما كان في سائر المدنيات السالفة (عهد كان عباد « برهما والطاو » يؤلفون الفئة المسيطرة التي تسمو على الملك . وعهد طبقة الفرسان في الاجيال الوسطى المسيحية التي كانت الصورة والمثل اللذين يقلدان) بل اضحى المحك هو كمية التحقيقات المادية ونوعيتها .

ويزيد المعضلة حدة انحطاط المؤسسات والحضارات المعروفة بالشرقية والتي لو قيض لها ان تستمر لكانت منعت الشرق أن يحذو حذو الغرب تماما ويتبع مثله الاعلى مقلدا تقليدا حرفيا مأخوذا بأوهامه وآثاره التي هي الى رؤيا مار يوحنا الحبيب اقرب .

وان كنت كشرقي تغرب وألم في آن واحد بالحكمة الآسيوية التي لا تتغير ولا تتبدل عبر العصور المتحولة يمكنني ان ادرك نوعا ما واحيط بعناصر المعضلة فأقول : ان المدنية الحديثة بوصفها تستهدف الاغراض او المدركات وتوفرها اكثر مما تستهدف الشخص المدرك او الانسان ، وترمي الى رقي الغرض اكثر ما تهدف الى رقي الانسان ، فان مركب النقص هذا ونتاجه القومي المتطرف سيفعلان حتما في عقلية شعوبنا .

لقد قصدنا هنا بالمدنية الحديثة من حيث مناقضتها للمدنيات القديمة (مصر واليونان مثلا) ومدنيات آسيا المتقهقرة التي كانت تستهدف الانسان اكثر مما تستهدف

الاغراض التي كثيرا ما اعرضت هذه الحضارات عنها فأثارت بذلك حفيظة المؤرخين ورسل العطف الانسانيين فعابوا عليها ذلك . وهذا التبدل في الاستقطاب يشكل خطرا اكبر على الشعوب التي تشعر بحرمانها من الآلة ، هذه الآلة التي هي العوبة الانسان المتاله على وجه الارض . الا انه ليس باقل خطرا على الغرب نظرا لما ينطوي عليه هذا التبدل في الاستقطاب من انجذاب موضوعي يبتعد بصاحبه على الدوام الى الخارج عن نقطة الدائرة اكثر منه شخصيا ذاتيا ، ونظرا لهذا التوق الوهمي المتزايد الى اشياء العالم الخارجي . ونظرا لهذا الخروج المستديم عن الذات العميقة وهذا التقلص الشخصي الحقيقي فينا او هذا الهرب الابله أمام الضيف المقيم الداخلي السعيد ، وذلك في سراب ما يظهر من سعادة او عظمة أو حقيقة خارجة عن الانسان ننشدها دوما وتبقى الضالة المفقودة المنشودة . سبب ذلك ان كل هذه الامور المهمة والخيرة لا توجد منفصلة عن ينبوع الانا العميق والحقيقي الذي يجسدها ويعكسها على شاشة الوعي ، كما انه لا يمكن ان يوجد المشهد منفصلا او بدون الشاهد عليه ولا لعبة الخلق الالهية بدون الروح التي بها تلعب .

وجـوه اخرى من المعضـلة

واذا عدنا الان الى العالم العربي فنرى انه لا بد من ابداء بعض الملاحظات في ما يتعلق بالازدواجية التي تكلمنا عنها اعلاه .

١ — ان الموقف الذي لا يتسم بالصداقة بل اكثر ما يضمر ويظهر العداء ، والذي يتخذه العالم الخارجي ، والغرب خصوصا ، في عدة معضلات تهم هذه المنطقة من المعمور ، كان هذا الموقف ذا شأن خطير في اثارة الشواعر الجماعية ، وفي

الهاب الادمغة وخلق الظاهرات العاطفية المرضية التي تتراوح بين التخوف الساذج والتعصب الوطني والحقد . كما كان ربما ، على نوع ما ، حال المانيا بعد الحرب الكونية الاولى وكما كان الحال في روسيا السوفياتية عينها حيث عزز شعور التهديد الخارجي الانحرافية السيكولوجية النفسية والمؤسسة الداخلية ، وكما هو ربما اليوم شأن آسيا — حتى آسيا الشيوعية — وشأن القارة الافريقية التي بدأت تخضها الامواج المتقدمة للثورات التحريرية .

وليس هنا مجال القول الى اي حد اساءت السياسة الغربية المرتكزة على عدم التفهم واحيانا على احتقار وعداء الشرق العربي وآسيا . فالعمل الخارجي وردة الفعل الداخلية عليه في السياسة ، كما في الطبيعيات يتجاذبان ويتوالدان ويتعارضان ايضا ويتقويان احدهما بالآخر .

حسبنا ان نعلن ان الحركات العربية السياسية الاجتماعية الفتية — الاشتراكية او التقدمية منها فقط ايا كان نوعها — لم تنج من هذا الخطر والرفض الذي اقامه الغرب حيالها . وهذا لم يمنع الحركات المذكورة التي تضم الفئات المختارة المثقفة في البلدان العربية والتي لا تمثل المستقبل فحسب بل تعبر ايضا تعبيرا سليما عن التطور السياسي والاجتماعي ، هذا لا يمنعها من ان تشكل افضل رأسمال وحصن ضد الشيوعية وخير صلة وصل بين الغرب من جهة وبين آسيا العربية والمسلمة من جهة اخرى وربما بين الغرب وآسيا كلها .

٢ — ان الملاحظة التالية تتعلق بمعضلة اسرائيل ووضعها التأسيسي في الشرق الاوسط . فهنا ايضا ضرب

الغرب والصهاينة مع الاسف ولعبوا اكثر ما يلزم على وتر التناقض والتعاكس واساءوا وتطرفوا في تطبيق قاعدة « المندالا » الاصيلة كما يلقبها الهنود ، هذه الشريعة التي تعتبر تعاكس القرب وتناقض الجوار والتعارض العفوي والاحتكاك الذي يتضمنه كل اقتراب ، او التمييز المتعاكس الكامن في كل تنوع .

لقد شد حبل الاختلاف والتنوع والخصام الى اقصى مدى فبلغت الجسارة حتى الوصول الى الصعيد التأسيسي والدولي فخلقت دولة سياسية على اساس ديني عرقي وحافظت عليها بين مجموعة من الشعوب معادية ، تكاد عقلية جماهيرها لم تتحرر الا قليلا من طور التجمع على اساس البدائية والصوفية الدينية . بينما كان من الواجب حل المعضلة على اساس قومية منفتحة انسانيا ، وهي وحدها الوصفة المحكمة التي يمكن الاشارة بها في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، على أساس اتحاد فدرالي عربي يهودي فلسطيني يفسح مجال ادخال فلسطين ودمجها معنويا أن لم يكن سياسيا في مجموعة بلدان الشرق الادنى .

وهذا لا يعني ان العرب لا يعمدون اليوم بدورهم الى قاعدة « المندالا » التعاكسية ويفرطون بها . ولكن العلة الاولى تكمن في الخطأ السياسي الذي المعت اليه .

٣ ــ والملاحظة الثالثة تختص بالحكام والزعماء العرب الذين راوا بعد ان عجزوا في معظمهم عن انشاء وتنمية ديمقراطيات سياسية حقيقية في الشرق العربي ، لجأوا الى القومية كسلاح ذي حدين ، بغية البقاء في مراكز القيادة الشعبية والحكم ومنع الانطلاق السياسي على الاجيال

الجديدة الطالعة وتأخير التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي قد يضر بمصالحهم الخاصة .

ان مثل هؤلاء الزعماء والحكام العاجزين والانتهازيين واللامسؤولين قد اساءوا في الواقع الى الغرب الذي يدعون خدمته .

٤ ــ والملاحظة الرابعة تتعلق بحركة اعمق مما يظن لأنها تنطوي على الخطوط الاولى لتكتل وتجمع على نطاق عالمي ، هذا التكتل الذي تجرأ تيلاردي شاردان مثلا ان يدعوه بلغته الرمزية « بالتكور البشري » او « بروح الارض » .

«La Planètisation Humaine» «l'esprit de la terre»

وهذه الحركة تستهدف على مدى طويل من الزمن تفتيح القوميات الحاضرة للشعور الانساني . اما مظهرها الاول الذي بدأت به اليوم فيقوم على التكتل الاقليمي على اساس ثقافي حضاري او قاري . فالتكتل الاقليمي الاوروبي يحل معضلة القومية في أوروبا ، وفي البلدان العربية لعبت جامعة الدول العربية ذات الدور المقرب بين الشعوب العربية فحدت وأضعفت من قوة التناقضات الالفية التي قامت منذ القدم بين مصر الفرعونية أو الفاطمية فيما بعد ، وبين العراق الاشوري الكلداني او العباسي . هذه التناقضات التي لم تظهر موقتا من جديد الا تحت تأثير التدخل الغربي الشديد الذي انصاعت اليه احدى دول الجامعة فتراخت من جراء ذلك روابط المؤسسة الاقليمية واصبح وجودها نفسه مهددا .

وتدخل في نطاق فكرة التجمع الاقليمي السليم والمفيد بعض المحاولات الاخرى كمؤتمر الاحزاب الاشتراكية الآسيوية

الذي كان الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني احد الدافعين اليه والـى تأسيسه ، ومؤتمر باندونغ وشتـى المؤتمرات الاقتصادية الآسيوية الخ ... وفي رأينا يجب أن تنبثق رابطة حقيقية للتعاون الآسيوي ، للحد من اخطار التوسع اللاعقلي الذي يهددنا من الشرق الاقصى ، ووقف سير العقيدة الكلية الشيوعية ودعم استقرار العالم العربي وتعجيل حركة تحرر الشعوب التي لا تزال مستعمرة وخصوصا كما اعلن احد كبار الديبلوماسيين الاميركيين ، اعادة الثقة بالنفس لشعوب آسيا ، تلك الثقة التي لا بد منها لتحقيق وضمان كل استقرار .

وبين الاسباب التي تحمل العرب على التفتيش عن عون لهم في التجمعات الاقليمية الآسيوية ينبغي علينـا ان نذكر خصوصا وكي نحافظ على تجرد هذا البحث ، الهرب والنفور من الغرب المخاصم السياسي ، والعون المعنوي اكثـر من المادي الذي يمكن للشرق الاقصى أن يوفره ضد الاستعمار ، وكذلك هذا النوع من الاثارة النفسية التي توقظها حضارات الشرق الاقصى في عاطفة وفكر الانسان العربي الذي هو في الواقع نصف شرقي بثقافته ، ولكنه يظل ينجذب الى سرية آسيا الوسطى .

القـومية والوحـدة

ونلخص كلامنا بما يلي :

ـــ لا يمكن فصل القومية عن البحث والتفتيش عـن المطلق ، هذا الاستقصاء الذي يشكل النزعة والتعبير الطبيعي العفوي الاقصى والعميق للكائن ـــ كل كائن .

فالقومية في شكلها الحديث التـي ظهرت في اوروبـا حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، ليست الا شكلا رفيعا

بل ظاهرة منفعلة لتنظيم المجتمع وسيطرة الآلة عليه . ولهذه العوامل علاقة وثيقة بالازمة الكبرى يعانيها الانسان الذي ما كاد يخرج بعد من عقلية الاجيال الوسطى والذي عدمت بصيرته ان يرى ويدرك مركز انطلاقه ومحور اندماجه وتوحده . ومن هذه الازمة النفسية نتجت النظريات الكلية في مختلف اشكالها ومعها الازمات التي تعانيها بعض البلـدان الديمقراطية في مؤسساتها البرلمانية وتقاليدها السياسية ..

ـــ لا يمكن فصل القومية عن البحث عن الوحدة . ولقد لاحظ ديغويت guit على حق ان اهل القرى والدساكر باشروا هـــدم مؤسسات الاجيال الوســطى وبدأوا عهـد الديمقراطية السياسية على نداء « تحيا الوحدة ... الوحدة ... الوحدة ... » وعلى مثل هذا النداء الذي يخطيء هدفه ولا يدرك محور انطلاقه والذي يبدو كأنه مفعم بارادة خلق يتجمـع الشيوعيون ويتكتلـون في كـل بلـدان العالـــم على نداء « يا عمال العالم اتحدوا » .

ولا غرو فالوحدة والاتحاد يشكلان نداء الكائن العفوي ـــ نداء كل كائن .

هي صلصلة الجرس الهائلة على تعبير الصوفيين التي تنشدها لذاتها ذات الكون وذات كل انا ظاهرة ، والتي على صوت ذاتها الاصم تتذبذب الطبيعة بأسرها وتتحرك ، تتألق وتتحلل في حركة توسعها وتقلصها ، انعكاسها وعودها الى المحور تربطها وتفصلها تلك القدرة العظيمة التي تتـداخل الكون .. هذه الوحدة التي تتصور ـــ في المستوى الرفيع المتعالي البشري ـــ بالمعرفة وبالحب ، كما كان يشير الى ذلك احد كبار رجال آسيا البصيرين .

فبقدر ما يدفع التعامي بالانسان الى البحث عن المطلق والوحدة في الخارج بقدر ذلك تكون القومية متطرفة متركزة في انانيتها المغلقة وتقضي على الحرية في الانسان وتطوح بالمؤسسات الحرة في كنف المجتمعات الحديثة . وبقدر ما يستطيع الانسان أن ينصهر في جوهره ، في محوره الذي لا يتحرك والذي لا يتبدل ، وبالتالي الحر ، بوصفه لا يتحرك ولا يتبدل — بقدر ذاك ينعم الانسان بالحرية ويشيع حوله توق الاهتمام بالمؤسسات الحرة والحرص عليها . ذلك لانه لا يمكن ان تبرز الحرية بدون الشعور العميق بالانسجام ووعيه . والحرية لا يمكن ان تنبثق الا من زوال الفوارق وانصهارها في حقل الوعي المدرك .

وهذا ما يؤدي بنا الى نقطة ثالثة تنجم بصورة طبيعية عن النقطتين الاوليين .

ان معضلة الحرية هي معضلة محض داخلية . ان لم تكن الحرية بادىء ذي بدء فيك فكيف يمكن ان تكون حولك وعند ذاك افضل المؤسسات الديمقراطية ادوات استبداد في ايدي الحكام اللامسؤولين عمليا . ويجب ان ندرك في ذلك مصدر النقائص التي تشكو منها الديمقراطيات البرلمانية في الشرق العربي التي ليس لاكثرها من الديمقراطية الا الشكل .

لعل هنا ايضا سببا للافلاس الموقت الذي اصاب النظام البرلماني في اكثر بلدان اوروبا واميركا اللاتينية .

وهنا ايضا يكمن احد الاسباب العميقة التي تجعل الشعوب تخضع للدول الكلية الشيوعية . وفي نمو حس المسؤولية ورغبة الحرية — المتزايدين بنسبة ارتفاع مستوى

العيش وتحقق تربية افضل وديمقراطية اقتصادية حقيقية ولو انها محدودة — يجب أن نكتشف ليس فقط الدافع الى التبدل في المجتمعات الماركسية ومفتاح الاضطرابات السياسية التي تهزها ، بل الوسيلة الوحيدة — عدا الحرب — لتحويل المجتمعات المستعبدة الى مجتمعات حرة . لان الحرية من حيث هي نزعة اساسية للكائن وتعبير عن شهامته ذاتها ، تنتصر دوما بالنهاية . ذلك هو ناموس النمو البيولوجي وذلك هو ناموس التاريخ .

وهنالك ناموس آخر ذو شأن ايضا قوامه ان الانسان المحروم من الحرية والخاضع لنظام كلي يتعلم اكثر من سواه استخدام الحرية والعيش في ظل الحرية السياسية عندما تحين الفرصة ، بينما من ينعم بهذه الحرية السياسية عينها ينزع على تتالي الايام الى التفريط بها واساءة الاستعمال حتى يجد في آخر الامر انه مهد بتصرفه هذا الطريق لنشوء الاوتوقراطية . أن الاضداد في حياة الانسان كما في كل شيء تتجاوب وتتجاذب .

ان القومية الواعية انسانيتها الاصيلة والمندمجة فيها ، ان القومية العقلانية الخاضعة للناموس الخلقي وللقانون الدولي تستطيع ان تلعب دورا مؤثرا تأثيرا صالحا في الحفاظ على المؤسسات الحرة كما يتبين من اختبار بعض البلدان الانكلوسكسونية . فبقدر ما تثير القومية شعور الواجب والمسؤولية المعنوية بقدر ذلك تعزز المؤسسات الحرة وتضمن سيرها الطبيعي السليم وتحمي الحرية السياسية من الانحطاط موفقة بذلك بين الرأي الشعبي وقوة السلطة ، لان انعدام النفوذ المعنوي والسلطة هو ما تشكو منه على الغالب الدول البرلمانية . اما الوجه الغريب والمستهجن في مثل هذه القومية

النامية في جو انكلوسكسوني فهو انطباعه غالبا بالشكل المحدود والاناني . هكذا لا تستطيع القومية ان تتخلص بسهولة من الانانية الجماعية التي تمثل والتي هي انعكاس وامتداد لل « آنا » الفردية ، وهذا ما يجعلنا امام وضع ذي وجهين ، يعتمد الديموقراطية في الداخل ويؤيد الاستعمار او نهج سياسة القوة في الخارج .

لا بد من بيان بعض التوجيهات التي تساعد على دمج القومية في المرحلة العالمية البشرية ، على انه يجب ان لا ننسى ان المعضلة في جوهرها تتعلق بالفرد ولا يمكن حلها على الصعيد الجماعي .

١ — تدويل وسائل الانتاج الكبرى . وهي لا بد ان تحصل ولكن يمكن تعجيلها . تدويل التبادل . تنسيق وتوجيه مختلف الاقتصاديات القومية على الصعيد الاقليمي او الدولي. انشاء تكتلات اقتصادية اقليمية متنوعة .

٢ — تشجيع خلق الكتل الاقليمية السياسية على مثال الجامعة العربية والمتحد الاوروبي والكومنولث البريطاني الذي هو بدون شك انجح المشروعات المحققة خلال التاريخ ، ووحدة الدول الامريكية . واني لاجرؤ حتى على اقتراح مثل الوحدة الاتحادية للدول السوفياتية لو كانت الحرية متوفرة لها .

٣ — تدويل وسائل الدفاع وخلق مؤسسة اتحادية فيدرالية ملائمة بشكل لا يبقى للامم من مستقل الا فرق شرطتها الداخلية ، او على الاقل خلق اجهزة اقليمية للدفاع لاجل ربط الشريك الذي قد تبدو منه نزعة عدوانية .

٤ — خلق برلمان دولي يشترك فيه ممثلون مباشرون من مختلف الشعوب والبرلمانات القومية . ويعمل هذا البرلمان العالمي بالارتباط وبمعاونة منظمة الامم المتحدة القائمة حاليا ويتخذ له حقوقا في المبادرة هامة في شؤون التوجيه والتقرير .

٥ — تشجيع تبادل القضاة الدوليين بين مختلف البلدان. ولن ينتج عن ذلك الا عدالة افضل وتفاهم أتم بين الشعوب وانني اذكر ان ملاحظة من هذا النوع قد ابديت في مصر حيث اعرب عدة محامين عن اسفهم على زوال المحاكم المختلطة ، وانني لاشاطرهم اسفهم فيما خص بلادي .

٦ — تطهير الكتب المدرسية (بواسطة مؤسسة دولية كالاونيسكو) من التعصب والانحراف الوطني الذي تتميز به . ولربما تجدر كتابة التاريخ من جديد ... فانه لا يوجد حتى تاريخ للعلوم يتفق الناس كلهم عليه .

٧ — تبادل أوسع واكثر حرية بين الثقافات وللمعلومات وللانباء وللزيارات .

وليس ما ذكرت الا امثلة اكملها بما يلي مفكرا في بلدان الشرق .

— تعزيز نشوء وبقاء الحضارات الآسيوية التي هي حضارات حقيقية حسب المفهوم الالماني للحضارة « كلتر » لان الحكمة الانسانية المنطوية عليها هذه الحضارات تشكل الوسيلة الفضلى « لانسنة » الانسان وضمانة حقيقية ضد كل تعصب قومي . ويجب اتخاذ مثل هذا الموقف حيال الفلسفات والاديان الشرقية عوضا عن الحمية الرسولية التي يساند بها الغرب دينا معينا او حضارة معينة .

— تخفيف وحتى الغاء الاسباب الاقتصادية والاجتماعية العميقة ألتي تجعل من القومية أداة هدامة للحريات الفردية . وانشاء نقطة خامسة تعنى خصوصا بالضمانات الاجتماعية للامم المتخلفة اقتصاديا وتكون برعاية الدول الكبرى « المثرية » .

واخيرا تعديل الموقف السياسي العدائي او التجاهلي الذي يقفه الغرب من الشعوب الاخرى .

القومية والانسجام في الانسان — او على آثار الامبراطور اشوكا

من المسائل الاساسية التي تشغل الاجيال الحاضرة مسألة دمج وصهر القومية بالصفة وبالمظهر الانساني بشكل تزول معه التناقضات الداخلية والخارجية في « غيرية » خلاقة .

ولئن كان لي في نهاية هذا العرض ان اكشف عن منزلق العثرة حبرا على ورق وفي وضعها الوجودي العميق لعدت الى ذلك الحكيم الذي قال لنا يوما :

« بعضهم يعتقد أو يتصور ان الانانية يمكن ان تضمحل فيهم فيما لو انتقل مركزها او محورها من الـ « أنا » الفردية الى جماعة محدودة أو غير محدودة كالوطن او كالبشرية . فيعمل الانسان مدفوعا بالشعور الوطني ، ويخدم بلاده ويضحي لوطنه . وفي الحقيقة انه لا يضحي ولا يعمل الا لنفسه ، ولكن عوض ان تكون الـ « انا » الكبرى ويعطيها من عنده ومن نفسه ، نعني بالانا الاجتماعية . فأنانيته

الخاصة تحيط المجتمع بكامله بشكل يتوحد مع الاجتماعي توحدا تاما .

« ومن الطبيعي ان مثل هذا الموقف في التصرف ، ومثل هذه الانانية الجماعية هي أفضل واسمى من الانانية الفردية الصغيرة ولكن الانانية الظاهرة هي أيضا هنالك ، تلك الانانية لا مفر لنا من التخلص منها للوصول الى الحرية الداخلية الحقيقية الكاملة » . وفي مناسبة اخرى توجه الينا :

« لكي نكون حقا بشرا علينا ان نتخلى عن كل وطنية . . . لان ما نصبو اليه من توحد لا يتحقق الا على صعيد حقيقة أعلى » .

قلنا ان ثمة حركتين في الكائن لا يمكن انكارهما في الانسان — كل انسان .

١ — نزعة الفكر الى الوحدة ونزعة الرغبة الى الوحدة ونزعة العمل الى الوحدة .

٢ — الحركة نحو المطلق التي هي تعبير رفيع للوحدة، وانجذاب وسوأسي اليها .

عندما يتمزق حجاب القومية — يتبين ان الحرية كانت دائما حيث هي الرفيقة الخفية للذات الداخلية ، وسعادة الذين « بالرغم من أستمرارهم في الحياة هم احرار » . لان السعادة والحرية شيء واحد . والمعضلة هي محض داخلية . فلندع السياسيين والمصلحين يطالبون ويجهدون :

ان الذي يعتبر نفسه حرا يصبح حرا ، والذي يعتبر نفسه مقيدا يظل مقيدا .. كما يفكر الانسان كذلك يصبح ، على حد ما ورد في هذا المثل الدارج الذي هو حقا حقيقي .

فهرس